محمَّدْ رَفِيق طَيّبي

المَوت في زَمَن هَش

روايـــة

Editions Vescera

الناشر: فيسيرا للنشر.
السنة: 2015.
البريد الإلكتروني : vescera.toufik01@gmail.com
عنوان الكتاب: الموت في زمن هش.
الكاتب: محمد رفيق طيبي.
الإيداع القانوني: 917-2015.
ردمك: 978-9947-975-72-5 .
التصميم والغلاف: محمد بن قينة.

الإهداء

أمي وأبي..

الأهل وَكُلُّ قَرِيب..

الرِجَال المخلصون والنساء المخلصات

المؤمنون بحقيقة الأدب وماخلق له

شُرَفَاء الوَطَن الذينَ رَحَلُوا.

أصحاب الأيادي الكريمة التي لا تحتكر ماتعرفه

منال أولا وأخيرا.

ميما وزمنها الآخر، زمن الإستحالة..

كلُّ الأحبّة أينما وُجدوا،.

- رفيق

مُباركة كَوَابِيسُ النَوْم، فَبِفَضْلِهَا نُصَدِّقُ بِوُجُود الجَحِيمْ..

«خُورْخِي لْوِيسْ بُورْخِيسْ»

(1)

اَعذرني أيّها القَارِئ الكَرِيم فالرّغبة في إزْعَاجِكَ لَمْ تَكُنْ هَدَفِي بِقَدْرِ ماكنتُ أرغب في إمتاعك وأنا أشد على يدك وأجرفك معي نحو وادي السرد السحيق، لكنّك الآن وقد إقتنيت هذا النص أو وقع بين يديك مصادفةً أقّرُ لك بكلٍّ صدق بأني قد ورطتك معي وليست لك أيّ مهربة من هاته الأغوار العميقة التي سنخوضها معا فإذا وجدت ما يزعجك فتضامن معي لأني قد انزعجت قبلك وإن وجدت مايسرك فابتسم في مكاني فلعليّ إبتسمت أكثر مما ينبغي بل وضحكت كثيرا رغم أني سمعت بأن الضحك يميت القلب لكن هذا القلب يحيا به ولا أدري لحد الآن مالسر في حياته عوض موته.

الفرنسي «مونتين» قالَ ذات تصريح بأنّ القراءة ستوفرُ لك الصديق الذي لن يخونك أبدا، لكنه أغفل في الحديث عن هذا الصديق وصفه فبعض الأصدقاء الأوفياء بقدر إخلاصهم مزعجون وإني أتصور أن ماقلته عن أولئك الأصدقاء سينطبق تماما على هذا النص، لأنك يا عزيزي سَتُوَاصِلُ القِرَاءَة أَحْبَبْتَ أم انزعجت وليس لي ما أعدك به سوى أني لن أُغرقك في حكايا الخيال العجيبة، ولن أنمق كثيرا بل سأكتفي بتوفير مكان آمن لك تطل منه على نوافذ

الواقع والحقيقة، لكن أنبِّهك وللأسف الشديد أنَّ تلكَ النوافذ غيرُ قابلة للغلق وستشاهد الكثير وماأوصيك به هو ألاّ تلومني وأن تترك أمرك للّه وأن تحاول التعمق والتركيز لعلّك تستفيد.

سأخبركَ أيضا بسرأراه كبيرا، قد كنتُ شاعرا ولما بدأ عودي يشتدُّ سمعتهم يقولون بأنَّ الشعراء يتبعُهم الغاوون وبأنّهم في كلّ واد يهيمون وبأنهم أيضا يقولون مالايفعلون ففزعت ورحت أبحث في التفاسير القديمة والحديثة فوجدت بأن الأمر على قدر من الخطورة ثم راجعتُ الشعر والشعراء فبدا لي بأن أسطره غير قادرة على توريطكم فيما أنا متورط فيه فعجّلت بالبحث عن البديل وها أنا اليوم أسرد عليكم مثلما سرد عليكم كتّاب آخرون، لكن الفرق بيني وبينهم أني قلّلت المزاح وقلّصت حجم الكذب الكبير الذي تعودتموه في الروايات بشتى أنواعها وجئتكم من الواقع إلى الواقع.

لحد ماكتبت لك عزيزي لست بشارح لماقدّمت فقط وجدت أنّ الإعتذار ضرورة ولأن قارئي هو عقيدتي وإيماني بالأدب وماخلق له فارضاؤه غايتي وهدفي الأول والأخير، أعترف أنّي أرضي شهوة الكتابة المختزنة بداخلي لكن قارئها هو سيّدها مهما تعددت التفسيرات والإتجاهات فالأدب هو سجل الحياة ومرآتها كما صدق أحمد أمين وهذا السجل الذي نشترك فيه يحق لنا أن نجد أنفسنا فيه كافة.

منذ أيام وأنا أعاني من كابوس كبير تكرّرت زياراته الليلية مما كدّر عليّ النوم وجعلني أطاردُ الكُتب بصنوفها دون جدوى، ذلك الجاثوم لم يكن عاديا فمايدور فيه تشابه مع الواقع حدّ التماهي،

كدت الجأ إلى كتب تفسير الأحلام إلاَّ أنّ درايتي بأنّ هاته الخطوة الخطيرة ستخل بشرف الأدب والثقافة جعلتني أمتنع عن فعل ذلك وقررت أن أكتبه لكم لعلّكم تفسرونه أو تستمتعون به أو تنزعجوا منه، لايهم فقد سبق وأعلنت بأنكم قد تورطتم وأجدد أسفي على ذلك.

إذن إتفقنا، وما أجمل الشفافية وما أبغض التعتيم، هيا يا صديقي ويا صديقتي إلى أقرب هدوء ممكن، سنلتقي كلنا على كابوس وماأخطرَ اللّقاء...

أَيُّها البَشَرُ الأَتْقِيَاءُ التَائِهُونَ فِي هَذَا العَالَمْ
لِمَ هَذَا التِيهُ مِنْ أَجْل مَعْشُوقٍ وَاحِدْ
مَاتَبْحَثُونَ عَنْهُ فِي هَذَا العَالَمْ
إبْحَثُوا فِي دَخَائِلكُم فَمَاأَنْتُمْ سِوَى ذَلِكَ المَعْشُوقْ

جَلَالْ الدِينْ الُرومِى

(2)

حين فتحَ عينيه، رفع رموشه إلى أقصى الأفق الذي يعلو سريره. عرف أنّ الوقت تأخّر وأنَّ موعد الإستيقاظ الذي إعتاد عليه قد فاته، وأنّ أوجاع الذاكرة التي داهمته في ليلة البارحة قد أثّرت عليه.

وقف على حافة السرير يتثاءب وهو يشعر بألم يسري في جسده، وصداع خفيف يشتدُّ بين الفينة والأخرى، أوشك أن يعود إلى الفراش لولا صوت أمه الذي ملأ الرواق وهي تدعوه للنهوض وتناول فطوره.

غيّر ملابسه بعد حمام دافئ أزال القليل من الإجهاد والتشنج الذي أصاب حيويته، ثم جلس يستمع إلى حديث أمه المعبأ بتراكم النكد والشكوى من الحياة.

تذكّر أنَّ عليه زيارة الجامعة فاستفساره عن موعد التسجيلات صار ضرورة فمنذ إنقطع عن عالمها وأصدقائها من أول الصيف، فلاهو يعلم عن أخبارها ولا هناك من يعلمه بأنبائها فكان منقطعا تمام الانقطاع.

بحث عن النظارات السوداء بين أشيائه.لن يخرج اليوم دونهما، فهما وصفة الكبر التي تمكّنه من إختيار من يراه ومن يتظاهر بعدم

رؤيته، كما أنّ أناقته لن تكتمل إلاّ بالتنسيق بين ربطة العنق السوداء والأسود المعتم لتلك النظارات الفاخرة.

كان الجو جميلا مشمسا يشره القلب وينفس عن الخاطر، فصفاء السماء يزيل السحب الكئيبة التي تلبّد سماء النفس الحساسة التي تعاني توهج الذاكرة فيها.

وصل إلى الجامعة، بعدما إستقل سيارة أجرة كي يتفادى المشي أو ركوب الحافلات المهترئة، فذكرى نزوله من الحافلة برائحة دخان المحرك الفواحة لا تزال عالقة بذهنه، فبعد أن تعطر بأجمل العطور وأغلاها وجد نفسه بحاجة إلى تغيير لباسه في يوم كان متّجها إلى موعد مهم.

حينما دخل أبواب رئاسة الجامعة شعر بصخب البيروقراطية يتعالى وأشدّه في تلك المكاتب الصغيرة التي تُشغل كل المصابين بداء البطئ والإستهتار. تقدّم إلى أحد المكاتب المكلّفة بتسيير شؤون الطلبة، وقف متعجبا وهو يشاهد بعينين حائرتين عددا من البنات وظفن في مكاتب لا تسع إلاّ موظفا واحدا على الأكثر.تساءل إن كانت البطالة المقنعة[1] التي عُرفت بها الاشتراكية قد ولّى زمانها، أم هوميلاد جديد لقواعد أخرى أنجبتها السياسة العرجاء؟ حتى إنّ الحضور النسائي صار يلفت الانتباه، فلم يعد حضورا عاديا بل طغى على الرجال لحد الشبهة. فقد تحول إلى ظاهرة إجتماعية تحتاج إلى الدراسة، من أجل معرفة الاسباب والخلفيات.

1- مصطلح يعبر عن مجموعة من العمال الذين يحصلون علي أجور دون مقابل أو جهد من الذي تتطلبه الوظيفة وهي نسبة اذا تم سحبها لا يترتب عن خروجها أي نقص في اجمالي انتاج الشركة أو المؤسسة وهذا ماعرفت به الاشتراكية في أوجّها.

أُعلم أنّ الدراسة لن تنطلق قبل عيد الأضحى، المناسبات هنا محافل للراحة وترك المشاغل بلا حساب.في طريق عودته إستوقفه صديق له ودعاه على فنجان قهوة يحتسيانه في مقهى جديد يدّعي تقديم أفضل الخدَمات وأجودها.جلسا على طاولة معزولة في زاوية المقهى، كأنّما تعمدا التضييق على نفسيهما. وكعادة الشباب لم يخلوا حديثهما من الحديث عن النساء والتفلسف فيهنَّ إلى أن قطع شريط الاخبار ذلك الحديث المستهتر.

كانت العدسات تنقلُ صورَ تلك الحشود الهائلة التي انتشرت في أرجاء مختلف الساحات الكبيرة والتي تحمل شعارات مختلفة دونت على لافتات بكل الأحجام.النداءات بسيطة فالكل يكرر: اللّه، سورية، حريّة وبس[1] شرارة إنطلقت من درعا بسبب إعتقال الأمن لمجموعة أطفال كتبوا شعارات تنادي بالحرية على جدار مدرستهم، لم يفهم أحد مالذيّ يجري في العالم العربي، ومن يقف وراءه، ولأنهما لم يتعودا الخوض في السياسة فقد عاد إلى وجه صديقه تاركا الشاشة خلفه وهو يقول:

- ألا تلاحظ أنّ هناك أمر غريب يحيط الواقع السياسي والشعبي للعالم العربي؟

- لا شيء يمكن قوله سوى أنَّ إسرائيل اللّه يلعنها راها نجحت...

- نجحت؟؟ بصح في واش؟

- المشاكل في سوريا هم إسرائيلي مهوش أقل من حرب 1967[2] ولوكان يطيح بشار راه يصرا ما يصرا.

1- شعار المواطنين السوريين في بداية الاحتجاجات سنة 2011.

2- حزيران الحرب التي نشبت بين العرب واسرائيل بين 5 و10 يونيو 1967.

- يااللّه منذ متى اكتسبت هاته الخبرة في السياسة نظن رجعت محلل سياسي، هيا نوضوا خلينا منهم.

تنافسا عمن يدفع الثمن وخرجا بعد أن سددّ التكاليف وافترقا في أحد الأماكن القريبة من منزله. عاد يصارع التعب والملل فهو لا يشعر بأيّ شيء يجلب له السعادة أو يغيِّر من مزَاجه الذي يعاني الروتين.

تمدّد على سريره، حلَّ الظلام بطول ساعاته وأرقها، تناول وجبة العشاء، أطلق العنان لموسيقى الشعبي[1] تداعب حسه وتمنحه راحة ما فقد كان مولعا بهدوئها وكلماتها وكذلك حكمتها الجميلة المتمثلة في بساطتها وحضورها الواقعي.

نام على إيقاع وحدته وإحساس بالفراغ في غرفة لم تزين إلاَّ بصور حزينة، وأخرى تعود إلى حقبة الاستعمار، ورِثها أبوه عن جده، ويحاول بدوره توريثها له.يعتقد أنّ بتعليقه لها في غرفته يعلقها على جدار قلبه، لكن شبان اليوم معلّقة قلوبهم بكل ماهو جديد وفاره، ومولعون بأشياء الغرب مع علمهم أنَّ الغربيين لم يولعوا إلاَّ بجرهم إلى مالا يحمد عقباه.

إستيقظ صباحا على أصوات التلفاز المدوية.الوالد الذي يجلس كل صباح أمام شاشة هذا الأخير لم يعد له من القدرة على السمع ما يتيح له عدم رفع الصوت إلى درجة يوقظ فيها الجميع، إقترب من والده واضعا على رأسه قبلة وكلاما لطيفا للتحية.طلب منه أن

1- طابع موسيقي جزائري ظهر في مطلع القرن العشرين وهو مستوحى من الموسيقي الأندلسية مع تأثيرات مختلفة اشتهر بالعاصمة ولديه عدة مدارس مختلفة.

يجلس ليرى مايحدث ويشاركه تفجُّعه. طفق يَطلق كلمات لاذعة: شوف يا وليدي أولاد الكلاب يعمروا فيهم هاهم بداو يخسّروا...

- واش دير يا بابا هاذي هيّ السياسة واعرة...

الشعارات تغيرت واستبدلت اللافتات بأخرى بعد مواجهة المتظاهرين بالرصاص الحي فأصبح النداء «الشعب يريد اسقاط النظام»[1] مرت الأيام والأوضاع تزداد سوءا يوما بعد يوم وأصابع الاتهام تشير إلى إسرائيل، فهي المستفيدة الأولى من تهشُّم العرب ودمارهم والذي لم يتحقق لها بالقوة والسلاح تحققه بزرع الفتن وبذر الشقاق.

حلَّ موعد الدخول الجامعي الذي يتطلب تغييرا كبيرا على مستوى توقيت الطلبة وهيئاتهم، وعاداتهم التي إكتسبوها من أيام الضجر الصيفية. شهر رمضان نال من الكثيرين حيث إستنفذ كل طاقاتهم وحلّت النحافة على أجسادهم المرهقة فلم يتحمس أحد إلى الدراسة فالرّاحة تعوّد وكسل يصعب التخلص منها خصوصا حينما تمتد.

إتجه إلى المحلات التي إعتاد إقتناء الألبسة منها فهو صديق الأناقة الذي لا يجد ضيرا في أن يقضي أياما يشبع غروره بتبديل الخيارات والألوان والأشكال، مكانته عند والديه أتاحت له ثراء وبذخا مكّنه من تحقيق جلِّ رغباته دون حيرة أو تفكيرفي الأموال

1- شعار رفعه المتظاهرون العرب في الثورات التي إنطلقت ضد أنظمة الحكم القمعية في الوطن العربي ولاحقا أصبح الشعار الرئيسي المرفوع في معظم الثورات والاحتجاجات العربية.

التي تضيع في كثير من الأحيان في أشياء لا تستحقها. بعد مدة عقد صفقة جديدة مع الأناقة حيث اقتنى لباسا كلاسيكيا مرفوقا بربطة عنق، وأضاف لاحقا عدَّة بذلات كخيارات للتبديل.

ساعة الجد دقّت. الجد في إستعراض العضلات والتفاخر. هكذا هي الجامعة في بدايات كل موسم حيث الهرج والمرج كبير وحالة من التأهب العشقي والعاطفي يطارد أذهان الشبان بمختلف توجهاتهم.

بكبريائه لم يسعَ إلى امرأة يوما، ولم يبذرترفعه في إستجداء أيّة رابطة أو علاقة بل أسرف في التعالي والنظر إلى النساء على أنّهن لاشئ، وأن كل إرتباط أو حب هو خلق لكذبة تضيّع الوقت والنفس.

يؤمن بشدة أنّ الرجل الحقيقي خُلق ليكون سيدا، وأنُّ لا سيادة بالتلاحم مع امرأة بل السيد هو ذلك الأسد الذي يجوب أرجاء الحياة بوحدته الطاغية، وأنَّ الحب داء وُجِد ليدمر الكبرياء، ويعطل الحالمين والموهوبين عن تحقيق أمانيهم. كل يوم يمر عليه يزداد تعصبا، كيف لا وهو يرى النساء بكل صنوفهن يحطن به، يتربصن بوسامته، ولأنه اختار الوحدة دوما فقد كان سيد إعجابهن. من فرط تولعهن به خشي الكثيرمن أصدقائه أن يصاب بجنون العظمة، كانوا يستهترون ويمزحون معه بوصفه تارة بروميو وأخرى بـ: ليوناردوا دي كابريو. في خضم عدائه للحب كان ودودا مع دينه. محافظا على الصلاة. لا يقتصد في شعائر الدين كما لا يغالي، فالتزم الوسط المرغوب واجتنب كل تشدد يفضي إلى التقصير ثم التخلي والترك.

إعتداله الذي طال دينه وتعبده ومناحي حياته لم يستقر على نفس الطريقة والمذهب في أمور النساء فهو لا يزال متعصبا، متشددا، مضادا لغرائزه، منتهجا لطريق الجفاء ضد كل من تصله أو تحصل على عناوين التواصل معه بعد عناء طويل. إلّا أنَّ حقيقة الفطرة والغريزة دوما دافعت الكبرياء، فكان يشعر في أحيان كثيرة بتعنته ووقوفه ضد شهواته، لكنها حقيقة يخفيها عن نفسه ويحاول دسها في حقل التجاهل وتركها خلف تاريخ الكبرياء والتعصب الرجالي المميت للإحساس والعاطفة.

(03)

إنْ أَخْرَسْتَ الحَقِيقَةَ وَدَفَنْتَهَا تَحْتَ الأَرْضْ فَسَوْفَ تَنْمُو وَتَنْبَتْ

إميل زولا.

حين إستيقظت الروح وتلاشى سبات الكبرياء. تبعثرت تلك الأحاسيس الشعواء، وأصبح القلب طائرا بجناحي الشوق، يسأل اللّه عشا يستلقي فيه ويحتمي به من ضباب الوحدة. إبتلت الأحاسيس بماء العاطفة المقدس فانتشر العطش بأرجاء حواسه وتفتت الرغبة على سطح جوارحه فتملست وأصبحت مضيافة للحب تنتظر أن تحتفي به ذات صباح أو مساء، وربما ذات ليل، فالحب يكن العداء للوقت ولم يلتزم بأخلاقيات الزيارة يوما، دوما كان ولا يزال مباغتا كالبرق وخاطفا بشكل لا يصح فيه أي تشبيه.

لا تسأل اللّه أن يغيِّر قدرك أويلطف فيه، فذلك الإحساس لا يعترف باللين ولا يتمسك بمبدأ الرحمة، إنه منفصم الشخصية، هادئ لطيف.متوحش عنيف إن ثارت زوابعه في أفق القلب، لا داعي للإنصهار فيه فكتلته لا تجيد المزاح وإن مازحتك فاحذر مزاح البحر فانَّ خلفه هاوية.

إستيقظ نعسا غير مرتب، كابوس الصباح طارده حينما لامست خديه أشعة الشمس المتسللة من النافذة التي تركها مفتوحة، شبه مستفيق يلعن الساعة ويحاججها في وصول الثامنة، فهو الذي إعتاد السهر والسمر إلى ساعات متأخرة لم يتقبل برنامجه الجديد الذي فرض عليه تحمل دقة الساعة وفلسفة الوقت المضادة للكسل والتخاذل فلا يزال قول الإمام الشافعي يحاصره فهو يدرك ماينتجه تضييعه «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك».

مسح وجهه من النوم بعدما تأكّد له أنه سيغادر لا محالة، رمى غطاءه خلفه بعادة كل الرجال في عدم ترتيب أغراض النوم.سار نحو الحمام يلقي التحية على أمه التي بدأت للتو تنظيفها المعتاد، وعلى أبيه الذي أصبح مبدعا في تقصي أخبار الدسائس والثورات التي تحاك ضد العرب.

لا يمر عليه الصباح دون ممازحة شقيقاته الثلاث، والتطلع إلى معرفة أسرارهن بأسلوب تهريجي مليء بالمحبة والصداقة. بعدما أنهى ترتيب صباحه بتفاصيله المختلفة، حمل تلك المحفظة السوداء الفاخرة التي تناسقت مع أناقته وخرج مودعا أهله. برنامجه هاته السنة مكتظ ملئ بالتضييق على حرية التسكع وممارسة التواصل الاجتماعي[1] بتعدد طرقه وإختلافها والتي تتيح للجماهير الكذب بأشكاله المختلفة والتصنع بمختلف الطرق بداية من الاسم المزيف

1- تمثل في مواقع عالمية ذات شهرة كالفايسبوك والتويتر وانستغرام وهي التي مكنت للافراد ممارسة الأنشطة والاهتمامات وتبادلها علي صعيد واسع وهي في مجموعها خدمات توفرها وتبرمجها مؤسسات كبرى.

والغريب في كثير من الأحيان وصولا إلى مشاريع وهمية تضمحل في كبسة زر مفادها «احذف».

وصل إلى الجامعة وهو مقتنع بتأخّره وفوات موعد الدرس الأول ووجد في ذلك سببا لتجنب إحراج محتمل من أستاذه الذي يثق في جنونه وعشوائية ردوده فقرر الجلوس بحديقة الجامعة التي كُيّفت بشكل يضمن راحة نفسية وجسمية لما بها من أشجار وهدوء يمنحانها من البهاء والسكينة مالا يتوفر في أماكن أخرى.

جلس بهدوئه المعتاد كمن به مس من الالهام أو شبهة شاعر يطيل التأمل علّه يقبض على حس يترجمه قصيدة. أحاطته فتيات يعلين أصوات الموسيقى من مكبرات هواتفهن، معلنين إنشقاقهن عن التقليد، في القديم كانت النساء يستحين من أصواتهن، وهاهن بنات العصرنة المزيفة يفتشن عن كل سفه ليرتكبنه باسم الحرية والتحضرالذي يجر إلى تجاوز حدود المعقول وإنتهاك أصول الحياة المتعارف عليها إجتماعيا.

بينما هو سابح في أمواج فكره الذي إستغرب مايحيط به، قطع تفكيره لون عابر، إمتزج بين الأسود والأحمر مع إختلاط خفيف بالأخضر الكستنائي.الأشجار تحول دون تدقيقه في الألوان العابرة فوقف ليشاهد تلك الحسناء. متباطئة الخطوات لا يعترض عينيها شيء سوى طريقها الذي تقطعه بكل فخر وثقة، فجمالها الاستثنائي منحها حق إنتظار إنتباه الغير لها لا إنتباهها هيَّ لهم.

دهش وأحسّ أنَّ إيقاع ضربات قلبه لم يعد مستقرا كما في السابق واعترف لنفسه أنّ حسنها قد أخلَّ باستقرار كيانه المغلف بالكبرياء، لكن لا عمل له سوى إنتظار عودتها من البناية التي ولجت إليها.

غيّر مكانه متكأ على جدار قريب من مدخل تلك الادارة المهترئة. بقي يسترجع كل مامرّ عليه من أحاديث حول النساء علّه يستخرج خبرة أو عبرة، فهو الذي لم يسبق له أن غامر بكبريائه يحتاج كثيرا إلى النصائح العامة التي كان يوجهها أصدقائه إلى بعضهم البعض على مسمع منه، فبعض الرجال يتبادلون خطط الايقاع بالنساء ويتلقونها كأفراد في جيش يودّون الإطاحة بعدو ما.

في تيهه وتجاذب الأفكار التي تراكمت، هاهي قادمة تحمل دفاترًا ومحفظة، أرسل نظراته تفتش عن أسرار جسدها المتناسق ومشيتها المرتبة، وماان وصلت أمامه حتى صدمه عطرها العبق، نزع نظاراته وقابل عينيها الدعجاوين بنظرات مسترسلة لم تعرف الانقطاع.

أحست بارتباك ما وحاولت أن تُصلح من مشيتها التي ضاعت. لكن لا جدوى.إبتعدت عن تغزل عينيه بابتسامة متأخرة أبدتها الغمازات على حواف خديّها وهي تسير في هدوء.

ماكانت له الجرأة أو القدرة على اللّحاق بها، فطالما كان يستهجن هاته التصرفات ويرى فيها تقليلا من الرجولة والأنفة. لحظات وتوارت عن أنظاره.جلس يفكر فيم كان يجب أن يقوم به، بعد حديث ذاتي قصير، قرر تجاوز أمرها والتوجه إلى قاعات التدريس من أجل حضور حصة أستاذ آخر على قدر كبير من التدين والتعصب.

جلس في أحد الصفوف الوسطى، لم ينتبه إلاّ وعدد لا بأس به من الجميلات يحطن به. مصادفة، وربما تعمدا. بدأ ذلك الأستاذ محدود الشعبية يطلق سهامه مهاجما أخلاق الطلبة وسلوكياتهم

تارة والنظام الإداري والتسيير تارة أخرى، ثم إنطلق في شرح المحاضرة التي كان عنوانها «أركان قيام جريمة الزنا».

إسترسل في الشرح كمن أعجب بالموضوع، ربما هي رغبة ما أو محض إعجاب. الجميع يلتزم الصمت وأحيانا يُسمع بعض الهمس من بنات يجلسنَ في آخر المدرج، أعجبهن الحديث عن هاته الممارسات في إطار درس أكاديمي، فهن اللواتي لم يتعودن على إقتحام هاته المواضيع من جانب علمي، قانوني وجدن لذّة في ذلك.

رفعت إحدى البنات يدها طالبة الإذن في طرح سؤال، أشار عليها الأستاذ بأن تتكلم. نطقت بصوت دافئ يحمل الكثير من خبث السؤال: لماذا لا نرفع العقاب عن الزنا مادام يدخل في إطار الحريات الشخصية؟ نظر إليها الأستاذ بتعجب لا يخلوا من السخط، وكمن يضيف إلى النار الوقود أضافت: أو لماذا لا نرفع صفة التجريم عنه أليس في المساس بهذا الحق مساس بالحضارة؟».

وما أن تفوّهت بالحضارة حتى خلت القاعة من الهدوء وحلّت مكانه فوضى لم تنقطع إلاّ ويد الأستاذ تهوي على مكتبه بكل مافيها من ثقل وقوة وهو ينادي بالصمت.

نظر إلى صاحبة السؤال بتقزز وقال لها بنبرة الغضب أنّ سؤالا عاهرا كهذا تقليل منا ومن حدود الله، ماهي إلاّ ثوان معدودة حتى جمعت أدواتها بطريقة فضّة وخرجت من المدرج وهي تصفع الباب خلفها.

ظن الجميع أنَّ الأمر انتهى وأن سؤالها كلفها ردا قاسيا وخروجا إضطراريا بسبب ماقاله الأستاذ لكن عكس ذلك فقد توجت غضبها

وخروجها الغير مأذون بالتوجه إلى عمادة الكلية والإحتجاج لدى العميد وإبلاغ والدها الذي وصل بعد زمن قصير.

إختلطت الأمور وأصبح الأستاذ في وضع تجاوز الحرج شدّة، خصوصا وأنها لم تنقل كلامه كماقاله بل أضافت عليه شيئا من السوء والجهالة. لم يكن الأستاذ لينجوا من هذا السخط لولا صداقته مع عميد الكلية والذي نجح بدوره في فض النزاع بينهم.

مرّ ذلك اليوم بما حمله من أحداث، لاتزال صورة تلك الحسناء عالقة بذهنه. في الجامعة لا بد أن لا تنتظر صدفة أخرى، فعدد الطلبة الذي يقارب عشرة آلاف قد لا يمكّنك من لقاء شخص أعجبت به.

إذن الفرصة ضاعت فهو لا يملك أدنى معلومة قد توصله إليها، وليس له إلاّ سلطان الخيال يوصله اليها متى شاء، ليغازل صورتها الوحيدة التي أسِرت قلبه في لحظة عبور.

المرأة الحسناء دوما لها حضورها الطاغي وتملك من بهاء التواجد في الأمكنة مايؤرخ لوجودها حيث الجمال هبة الله التي لا تستقر إلاّ في امرأة تناسقت أنوثتها الفاخرة، ووحده الرجل الحذق له تلك القدرة على تذوق ذلك الجمال الفاره الذي قد يحتاج في كثير من الأحيان إلى طقوس خاصة به للحفاظ عليه.

نام يائسا يعدُّ حبات السقف المزيف ويلوم نفسه لتنازله الطفيف عن كبريائه، فهو الذي لم تتعثر ساعة نومه منذ زمن لم يتقبّل أن يشغل باله خيال امرأة لحد السهاد.

وحده النوم يقبض على أرواحنا لزمن طالما نتمنى طوله كي نعيش في غير واقعنا الملئ بالضجر، ماأصعب الخيبات في الحياة، وما أشدُّ فظاعتها وقساوتها حين تواجهنا في أول خطوة نحو حلم ما، فان تتعثر في منتصف طريقك فذلك أخف من التعثر في أول خطوة نحو تغييرواقع ما يثير الشعور المزمن بتقلص عضلات وعظام الصدر.

إلى فجر آخر كانت الأمور تخضع إلى سيادة الروتين فلا جديد في عالم لا يمتلك خاصية التغيير والناس مولعون بتكرار الزمن وتقليده.يعيشون دون طموح، ربما هو الضعف المستقر في النفوس وربما عجز عن النظر إلي الأعلى، فالكل يرى في هاته الحياة المادية سلما قصيا صعب المنال، فالكثيرون تعرضوا إلى إجتياح الجمود لأنفسهم، فماعادوا قادرين على مجاراة الأحلام، فهي التي تنتظر فجرها على نور الأمل، فان لم تجد ذلك الذي تنتظر، تتلاشي كمدا وحزنا على أمل حقق ألم التلاشي والاضمحلال.

ذات صباح كان الجو ممطرا ودافئا لا يخلو من الشعور بالهدوء حيث يفتح أمام الأرواح الحالمة كل سماوات التغزل بحاجات الطبيعة البديعة.حينما وقف بذلك المعطف الراقي الذي زيَّن سواده محيطه، كان حقا سيد الوسامة فرجل وحيد يغازل المطر لن يكون أقل إغراء عن أي رجل في هذا الكون مهما إعتلت مواصفاته.

بين الرذاذ المنتشر على حواف أوراق الأشجار يمارس طقوس الكبرياء بالنظر الي السماء بعينين شبه مغمضتين، قطع سكونه خليله الذي عثر عليه مصادفة بابتسامة مشرقة وهو يلقي التحية ويقول:

- هل تعتقد أنَّك نزار قباني مثلا، أو أحد مشاهير بوليود الذين يمارسون هواية الوقوف تحت المطر؟

- أتسخر من وقوفي تحت الأمطار؟ إنها تغسل فؤادي كما تغسل بزخاتها الأشجار، ثم هي جميلة..

- يقهقه... أتعتقد أنَّ قصائدك الماجنة تلك جعلتك شاعرا، كفاك جنونا. وأخذ يردد بصوت ساخر:

أصرخ تحت المطر الأسود في عينيك[1]..

كالمجنون..

أرحل من مرافئ الشعر الذي كان...

الى مرافئ الشعر الذي يكون...

- آآه لو علم نزار قباني أنَّ معتوها مثلك سوف يحفظ كلمتين من شعره ربما إستقال من الشعر، هيا يا عبد القدوس ساخلصك من عالمي الراقي ولتأخذني إلى عالم مقهاك الذي يحوي ترف الكسل والجهل.

- كم كلامك فظ وفوضوي، لماذا تتعمد الاساءة لمقدساتي؟

- يضحك... اذن المقهى مقدس بالنسبة لك، واحدة بواحدة والبادئ أظلم. ثم سحبه من يده وغادرا.

1- من قصيدة نزار قباني المنشورة تحت عنوان: التلاميذ يعتصمون في بيت الخليل بن أحمد الفراهيدي.

جلسا وسط المقهى، طاولة ملوثة بالبقايا والفضلات، لم ينتبه النادل إلاَّ بعد إستفزاز تلك البقايا لهما، فجاء مهرولا ومعتذرا عن غفلته، طلبا كأسين من الشاي فهو الأنسب لبرودة الجو التي ملأت المكان.

بدأ حوارهما بفتح علبة الذاكرة والتفتيش عن الأحداث الجميلة التي عايشاها منذ زمن بعيد فمشاهد الطفولة نقش على جدار الذاكرة لايعرف الزوال، ذكره عبد القدوس بيوم أسود قاما فيه بسرقة دجاجة جارتهما العجوز وبيعها بعشرة دنانير، والعقاب الذي نالاه يوم قبضت عليهما، بعد أن نسيا فعلتهما، حيث أشبعتهما لطما على الخد والمؤخرة فكان حدثا يستحق التذكر، وهاهما اليوم يترحمان على روحها التي تتدرج ضمن طفولتهما الجميلة.قاطع عبد القدوس وهو يسأله:

– أين فتاتك التي تحلم بها، أم لا تزال وحيدا تتحسر عند كل حسناء؟

– آه يا صديقي لو أخبرتك بفعلة النساء..

– مؤخرا أصبحت غامضا، كأنَّ الزمن أنساك الحميمية التي بيننا، مالذّي حدث معك؟ يبدوأ أنّك أسرفت في الأحلام.

– ياصديقي بما أنّك تحب المطالعة ربما مرّ عليك قول عبد الرحمان منيف[1] الذي يدل عليَّ «لا تظن الهدوء الذي تراه في الوجود يدل على الرضا، لكل انسان شيء في داخله يهزه ويعذبه» وحقا كما قلت قد أسرفت في الحلم، فأسرف عليَّ الألم جودا وعطاء، فبعد استقالتي من الحب منذ أيامي الأولى التي دخلت فيها إليه. عدت

1– من أكبر الروائيين العرب 1933–2004.

متناسيا خيبتي وألمي السابق اللذان طارداني لسنوات عدّة.أثناء سيري نحو حب جديد كنت أخشى أن ألتفت خلفي كي لا أرى ذلك الماضي الذي أرهقني حمله. هرولت نحو امرأة خاوي اليدين، آملا في القبض على نفسي بين يديها، طامحا في العثور على أنفاسي العاشقة التي ضيعتها يوم أعلنت العصيان على الكبرياء وتوجهت إلى الحب حافي القدمين فوخزتني بل أدمتني دبابيس الخيانة. كانت طيبة حد الادمان ومازحة إلى حد تلتهم فيه حزنك وألمك. ماهي إلا أيّام قليلة حتى وجدت منفى في أحداقها إلتجأت إليه فارا من ذاتي إلى ذاتي الأخرى التي أهدتها إليَّ تحت أهازيج الحب وأنغامه. نسيت لغة الشجن واعتنقت لغة العصافير وكم اعتقدت أنها ذلك النبراس الذي عثر عليَّ بين الركام فأنار حياتي حنانا ورحمة، كم تسامرنا وكم تشاجرنا حيث لياليا كانت أقرب إلى الحلم من كل شيء وأصبحت أرى واقعي صغيرا أمام عظمة الحب والانوثة فكنت ذلك العاشق المتشبع بثقافة الاخلاص وذلك المحب الذي رسم للحب عقيدة بذاته يستقر عليها.

قاطعه بتعجب وهو يقول: من صوتك تنبعث أمواج حزن ما، لا تقل لي بأن حبا بهذا الحجم وبهاته المقاييس انتهى؟

- نعم نفذ الحب لكن جراحه لم تضمد ولا زال قلبي ضريرا إتجاه النساء فلا ألمح فيهن إلاّ سوادا قاتما وشبحا يتداخل مع أرواحهن إسمه الخيانة. أصلح من جلسته وتناول رشفة من الشاي واسترسل في الكلام:

- قضينا أشهرا من الحب.توهمت كما أوهمتني بأحاسيس شعواء كلها تصب في جداول الإخلاص والوفاء العاطفي الذي تحلم به كل

طوائف المحبين، إلى أن جاء ذلك المساء الأسود الذي رماني فيه القدر إلى سراديب مظلمة، لم أعرف بعد كيف أنتشل نفسي من المكيدة التي حيكت بسذاجتي. كل هاته الآهات تفشت في أرجائي حين رنَّ هاتفي بذلك الإتصال المشؤوم، أتدري من كان.. إنه توأم الخيانة وعشيقها الآخر الذي لم أتحسس وجوده يوما، كانت بارعة لحد الاحتراف ونجحت في خداعي طوال فترة تخديري بمعسول كلامها وها قد إستفقت من الحلم وسقطت إمبراطورية الخداع في كمين الحقيقة تجاذبنا أطراف الحديث أنا وذلك الرجل الغريب الذي يعاني ما أعانيه فكلانا شريكان في علة الخيانة، عرفت أن كل ماقيل في الحب كان شراكة بيني وبينه وأنَّ كلَّ حادثة كانت عندها بخبرتين وتجربتين وأن تعطشي لها ماكان حكرا عليّ.

هي الخديعة بمعناها القذر، فما أسوأ أن تغدر من أحبك حدّ الجنون وكم هو مروع أن تتلقى طعنة الخذلان وأنت غافل عن نفسك منشغل بذلك الحب الذي يعلن وفاتك في كل كلمة دون أن تشعر.

– هون عليك يا صديقي وتذكر قول رالف ايمرسون[1] «مقابل كل شيء خسرته قد كسبت شيئا آخر» قد خسرتها هي وكسبت نفسك، فلا تحزن على خائنة كانت ستواصل تلويث حياتك.ذلك النوع البائس من النساء يجد متعة في إستغفال رجل وإعلان الاستحواذ عليه ثم التنويه بقهره وإركاع قلبه الذي فقد مقاومته وأصبح ضحية للحب والتعود، يوم كشف أمرها وأعلنت لنفسك إنتهاء صلاحيتها، قد أعلنت أيضا دون وعي منك أنّك قد إنتصرت ووجدت طريقا

1– فيلسوف وشاعر أمريكي 1803–1882.

لتعود إلى ذاتك وتحتكر ملكية نفسك لعقلك. القلب عدو إن سار إلى غيرك دون توجيه، ستشعر حقا أنَّ حياتك أصبحت أفضل وأنك قد تخلّصتَ من عبودية الحب الذي جرَّ عليك الألم والخيانة.لتنسى أكثر.لتكون أقدر على ممارسة حريتك وحياتك الجديدة.

لم ينتبها لمرور الوقت فامضيا ساعتين على موضوع لا تُعرف له نهاية، خصوصا وأنَّ عبد القدوس أغلق قلبه المحترق بسر الغدر وألمه ولم يفتحه إلاّ اليوم حينما وجد أنيسه ورفيق طفولته الذي طالما أخذ مشاريع الحب الخائبة على محمل الجد وأعطى أصحابها الجرعات الكافية من مسحوق النسيان الثمين عن طريق أشعاره وكتاباته المغرية، فقد رفع الضماد عن جرحه علّه يخفف من ألمه أو ليجد له حلولا تكفل له النسيان فهو بثقافته العالية يؤمن بأنّ على الكاتب أن يكون الفأس التي تكسر البحر المتجمد في الأفراد وذلك على حد قول فرانز كافكا[1]. غادرا ذلك المقهى بصمت. شبح الحزن خيّم عليهما دون أن يشعرا به فدوما الحديث عن الألم والحزن يعطي شعورا سلبيا يغطي على مسرّات النفس ويمتص طاقتها.

عاد إلى البيت مرهقا، الوالد كعادته لا همّ له إلا الأخبار ومايجري في العالم العربي.ليته احتكر إهتمامه. بل يقحم كل من يعبر على شاشته في الربيع العربي والناتو وغيره ومن شدة إحترامه لأبيه لم يجد يوما ملاذا للفرار من الشروحات والتفسيرات التي تستغرق في اليوم أكثر من نصف ساعة والتي يرى فيها وقتا ضائعا وتفكيرا مهدورا لا جدوى منه. والده بلغ من الكبر مرحلة لا يجادل

1- كاتب وروائي المانى ذو أصول من التشيك 1883-1924.

فيها في قناعات قديمة وإهتمامات رسّخها فيه الزمن فلا يملك إلا مسايرته والصبر على مالا يروقه منه على وجه الطاعة والمحبة وهذا هو الأجدر لمن فقه الدين وتعلّم أصول الحياة الصحيحة والسليمة.

جلس ينصت للتحليل السياسي الذي يتّهم فيه إسرائيل بحياكة مؤامرة ضد العرب والمسلمين ويشير إلى قروب وصول هاته المؤامرة إلى الجزائر وبأنَّ العشرية السوداء ستعود من جديد لتكون حمراء بدماء الإخوة الذين فرّقهم اليهود بصناعاتهم الاستخباراتية. ماكان ليقلل من ثقافة والده السياسية إلا أنَّ تقديمها البسيط جعلها تبدوا ساذجة ومع مرور الزمن واستمرار تلك الحرب البائسة أصبح موضوعها لا يقتصر على والده بل شمل كل مجتمعه الصغير فتارة تأسُف وأخرى حيرة على وضع غير دقيق المعالم.

نام بعد حمام ساخن أزال عنه تعب التفكير والجسد. فتحت والدته باب غرفته وجدت في نومه الملائكي مايثير الشفقة حيث نال منه الإرهاق لحد نسيان غطائه وانكمش يتوسل تلك الوسادة شيئا من الدفئ أو ربما الحنان الذي افتقده في واقعه فالتجأ إلى وسادة صماء تشاركه أنفاسه وحنان صدره بصمت.

الهاتف يصدح، الساعة تشير إلى السابعة، إخترق أذنه صوت ناريمان التي إعتادت بجنونها ومرحها رفع صوتها في الهاتف لحد يوقظ الموتى على حدٍّ وصفه.

- صباح الخير... إنهض هل نسيت أنَّ الحصة التطبيقية الأولى على الثامنة، هيا إنهض يا كسول..

- يا إلهي لم اكتف من ضجيجك في الكلية حتى تطاردينني به في الهاتف.

- يطيح سعدك[1]. كون راك تندب على أيامك. كلي نوكل في الكونفتير للحلوف[2]...

إنقطع الخط، ضحك برهة ثم قام من فراشه وهو يحافظ على تلك الابتسامة التي ارتسمت على شفتيه بفعل الأمثال الشعبية التي طالما إستخدمتها ناريمان في وقتها ومكانها المناسب.ناريمان طالما احتلت دور البلسم فما من ضيق أو ألم إلا وأزاحته بجنونها وضحكاتها مختلفة الألوان، دوما ما تصل متأخرة عن كل حدث أو قصة جرت، فتثير تارة الضحك وتسبب التعب تارة أخرى بسبب فهمها الثقيل وحبها للإحاطة بكل التفاصيل خصوصا وأنَّها تعتقد بأنّ حسنها وجمالها يخولُ لها حق السؤال وإيجاد الجواب بصفة ملزمة على الآخرين، فهي مطمع الرجال ومبتغاهم الذي يربكهم أمامها فتلبى كل طلباتها وتتلقى كل الأجوبة عن كل إستفساراتها وبالشرح الكافي. إلا أمامه فتجد نفسها تتعامل مع من لا يبذل أيُّ عناء في توجيه العبارات المقللة والمفندة لاعتقادها، فقد إعتادا تبادل الأوصاف الرديئة وأساليب التهكم.

كان يخشى أن يقع ذات يوم في حبها فكم من العشاق فتحوا أبواب الحلم بألفاظ ومشاهد التهكم والسخرية فتلاعب القدر

1- عبارة شهيرة باللغة العامة الجزائرية مفادها التهكم والتقليل من حجم تصرف أو موقف

2- مثل شعبي قليل الاستخدام مفاده الجحود وعدم الاعتراف بالجميل: كمن يطعم المربى للخنزير فلا فائدة ترجى من اطعام الخنزير بالمربى.

بأوراق قلوبهم فأصبحوا متيمين يصارعون أواسر المحبة والشوق، فتلك العلاقات الجميلة التي تخلوا من البرتوكولات والرسميات دوما تحمل حبا أعمق من غيرها، فهي التي تنشأ على يد الزمن ترعاها الألفة والعادة لا كتلك العلاقات السريعة التكوين، السريعة التلاشي والزوال، حيث تفتقد روابطها في أول إصطدام بالواقع.

وصل إلى الكلية، وجدَها تنتظرُه في الحديقة الخلفية التي تضم العشرات من العشاق، اختلفت طرقهم في التعبير فهذا يضمها إلى صدره ويهمس في أذنها، وذلك يمسك بيديها ويظهر ملامح الغزل وآخر يمارس طقوس الرغبة وآخرون يترصدون آخرين.

إنها أجواء باذخة في العشق وكثيرا ما تتحول إلى أماكن للتمتع بالخلاء، فلا سلطة هناك منذ صار أعوان الأمن يشتهون تلك الأجساد التي ترى فيهم الحماية والضمان، فآخر فضيحة هزَّت أوساط الطلبة كانت يوم أعلنت إحدى الطالبات أنّ رئيس فرقة الأمن الذي بلغ من بياض الشعر مايخفي قذارته يتحرشُ بها ويساومها المتعة.

هي مهزلة بأتم معني الكلمة، فمتى كان الرئيس الكبير مظهرا وعمرا يتحرى هاته الدناءة فكيف سيكون حال أولئك الذين يترأسهم ولم تتجاوز أعمار غالبيتهم الثلاثين.

من غرابة المجتمع الجزائري أنَّ التسامح مع الأنذال عادة، فمنذ الحقبة الاستعمارية ونظام «الجماعة» والذي مفاده أن تقوم مجموعة من العقلاء والاعيان بارساء دعائم الصلح قائم.الطالبة

تم استدعاؤها وإقناعها بأنه متزوج وأب لأطفال، هوعذر كافٍ حسبهم كي تتنازل عن شكواها، وياله من عذر باهت، أما هو الآخر فتمت معاقبته شفهيا بكلمة «ماتحشمش[1]» التي لا مردودية لها.

هذه الممارسات أصبحت ظاهرة الجامعات التي تعبر الأسماع كلّ يوم وكأنّها أمر طبيعي، كما أن هذه الظاهرة لم تقتصر على محدودي الثقافة أو العمال ذوي المستويات الضعيفة بل وصلت علّتها إلى بعض الأساتذة وأصحاب المراكز المرموقة، كتلك الطالبة المجتهدة التي صدمتها علامة احدى المقاييس ذات المعامل العالي فبقيت لزمن طويل مفتوحة الفم، جاحظة العينين أمام لوحة الإعلانات التي تسببت في إغمائها بعد عشرة دقائق من النظر المتواصل إلى علامة لم تكن في الحسبان.

حين توجهت إلى الأستاذ الدكتور المسؤول عن ذلك المقياس تستفسره عن تلك الخيبة التي دمرت مشروعها في الحصول على الماستر، كان ردُّه غريبا وهو يشرح لها بأنها علامتها الحقيقية وأنّ جهدها الذي بذلته لم يحقق لها النتيجة التي انتظرتها، بعد فراغه من إقناعها بأنّ لا جدوى من الإحتجاج أو طلب إعادة النظر عرض عليها حلا أخيرا:أن تزوره في مكتبه يوم السبت على الساعة التاسعة لربما وجد لها مخرجا مناسبا.

نظرت اليه وقد تغيرت ملامح الأبوة التي طالما رأتها فيه وحلّت ملامح ذئب بشري يتربص بها، كلامه الذي خفّف وقع صوته وخفّض مستواه وأصبح أكثر ليونة يوحي بالكثير، لم تجد أمام

1- الا تستحي.

حاجتها من جهة وعدم زوال الشك باليقين من جهة أخرى سوى التوجه اليه في صبيحة ذلك السبت الذي ملّت من إنتظار مفاجأته.

دخلت صباحا إلى ذلك الرواق المظلم.عدد قليل من الطلبة وغياب أغلب المستخدمين، السبت يوم عطلة لا تعمل فيه إلاّ فئة قليلة. إنتابها الخوف وهي تقطع آخر الخطوات الموصلة إلى مكتبه. لحظات فقط.فتحت الباب بعد طرق خفيف لتجده بلباس غير رسمي قريب إلى بذلة النوم وكمن يذكره بمقامه جلست وهي تقول:

– صباح الخير دكتور. عذرا ربما أرهقتك فأعلم أنّك لا تعمل اليوم.

– صباح النور يا حسناء، لا التعب لأجلك يعتبر راحة فخدمة جميلة مثلك شرف..

شعرت بالارتباك من كلامه، وواصل متناسيا شرفه الأكاديمي:

– أنت مختلفة تماما عن الأخريات، سرّ ما يحيط أنوثة إكتملت فيك.

أمام دهشتها بغزله حاولت التخفيف، وتبسيط ما يقول علّه يرجع إلى رشده.

– شكرا أستاذي... لكن أخبرني ماالعمل وما الذي ستقدمه لي من أجل تلك العلامة؟

– يضحك... العلامة شيء تافه ستجدينها ستة عشر فقط لأنّك متفهمة؟؟ فهل هذا يرضيك؟

لم تنتبه للفظ «متفهمة» وراحت تشكرُه بكل ماتعرف من عبارات الشكر ثم همّت بالمغادرة. ماكادت تصل الباب حتى وجدته قد قطع

طريقها وأغلق القفل باحكام تأكّدت أنّ توقعها لم يخب وأنّ مالم تشتهيه قد حانت ساعته.

- أتغادرين وشوقي لك أكبر من الشوق بذاته، كم انتظرت أن نكون وحيدين، فأنا ماشعرت يوما بأنك طالبة كباقي الطالبات، بل دوما كنت حلما يرفع رأسي إلى سماء الترجي، هي إذن ساعة الاستجابة.

يتحدث وهو يمد يديه إلى أنوثتها المرتجفة، المرتبكة.

تعالي واجلسي فلي حكاية معك لن تطول، كوني أنثى كما رسمتك في الخيال، لا تجادلي أنفاسي ولا تمنعيها واستسلمي للقلب الذي امتلأ بك.

متمرس على اللغة ويملك زمامها، حاول أن يكون في سنها ويقنعها برذالته ودنو أفعاله بكلام الحب الذي يحفظه عن ظهر قلب، وبعض الورديات البالية. لم تجد أمام قوة ساعديه التي ترجمها ضغطه على معصمها بشكل لم يعطها فرصة للإفلات أيّ عمل؟

- دكتور.. دكتور من فضلك تأخر الوقت، دعني أرحل...

واصل في تعنته إلى أن تمكن من القائها على حافة أريكة أعدّت لاستقبال الضيوف. ساعدته على فعله المخل بالحياء ملابسها الصيفية الخفيفة. نال مانال قوة وتسلطا تحت ذرفها للدموع الذي لم ينقطع تماما.

الأنذال الذين يتخفون بأقنعة العلم يملكون من القسوة واللامبالاة في تنفيذ مخططاتهم مالا يحيي ضمائرهم. هي مثال

بسيط عن الحقارة الجنسية التي تختفي وراء ستائر ربطات العنق والمحافظ الفاخرة.

شرعت ناريمان تشرح له مشاريعها التي لم تتجاوز شراء علب التزيين والملابس الباهضة الثمن. كان منشغلا عن مشاريعها الساذجة بالتفكير في مستقبله ومستقبل غيره من الشباب فهو يرى أن خريجي الجامعات يتكاثرون بشكل فظيع ومناصب الشغل كل يوم تحد ندرتها أكثر، هذا مايفتح الأفق أمام إستفحال الآفات الاجتماعية والظواهر السلبية.

إنقطع تفكيره وهو يسحب يد ناريمان ويقول:

- يا الله من تلك الحسناء، هذا جمال؟ أم جنون؟

راحت تبحث بعينيها. من تقصد؟ تلك القصيرة التي ترتدي الأسود؟

رد بتهكّم: هي لا تشبهك. أنظري جيدا أمام المدرج 04، هاهي بحسنها ترتدي الأبيض، كأنّها ملكة...

- آآه تقصد تلك التي تضع نظارات سوداء فوق رأسها.. !!

- نعم هل تعرفين من تكون؟

- أول مرة أشاهدها هنا، ربما أتت من جامعة أخرى عن طريق التحويل أو هي بدوية غيّرت مقر سكناها.

لم يكن في تلك الفتاة أيُّ علامة توحي بأنها تنتمي إلى جهة أو جهة أخرى، إلا أنّ اهتمامه بها بشكل خاص أشعل الغيرة في قلب ناريمان التي لم تعتد إهتمامه بالنساء.

– سحرتني لمرتين، لن أغفر لها تجاهلها لي، كيف لم تشعر بوجودي وإهتمامي..

تهقهقه... هل تعرفك؟

– لا ولكن من المفروض أنّ قلبها يعرف قلبي الذي إهتز للمرة الثانية، لكن لن أضيعها الثالثة كوني مطمئنة.

– هل أطمئن وأنت تبحث عن امرأة لا توليك أيّ اهتمام، هيا لنغير المكان فقد مللت الجلوس هنا.

غيّرا المكان وجلسا في أحد المدرجات الفارغة، بعد أن علما أنّ الاستاذ المحاضر قد ألغى المحاضرة وعوّضها بأخرى في توقيت سيحدد لاحقا الصمت خيّم عليهما ولم يجد وسيلة يكسر بها سكونا طال أمده إلاّ ورقة بيضاء وقلم أسود حملهما وبدأ يدون أفكارا عابرة. تلمّحت ما يكتب بنظرة خاطفة فهي تخشى أن يصطاد نظراتها فيتهمها بالتطفل.

سألته عن الخربشة التي يقوم بها. أجاب بأنه الفصل الأخير لرواية قضى سنتين في العمل عليها. لم تعرف عن موهبته وميولاته الأدبية شيئا من قبل، لكنها لم تستطع تقبل وجود مشروع في حياته لم تعلم به من قبل وهي التي طالما كانت ظله. سألته عن فحوى هذا الفصل وعن أسماء شخصيات الرواية وكأنها تنتظر أن تجد اسمها ضمن عمله الروائي ولما تأكدت من عدم وجوده، سألته بصيغة مباشرة عن مكانها في عمله ووجود إسمها من عدمه.

– أين هو اسمي، ألم تستخدمه؟ أم عملك يخلوا من الحسناوات اللواتي يشبهنني؟

– يبتسم: ربما اذا احتجت إلى شخصية امرأة بلهاء سأوظف شخصيتك ودون شك سيتعطل خيالي، أما إسمك فقريبا سأستخدمه لأنَّ عجوزا شمطاء ستكون ضمن الشخصيات وناريمان هو الأصلح لها.

نظرت إليه وهي ترفع عينيها من قدميه إلى شعره، تقيس حجمه. حمرة بدت على وجنتيها وما إن رفع رأسه عن تلك الورقة حتى تلقَّى لطمة على رقبته وضربة خفيفة على ساقة فصاح:

آآه سروالي أبيض شوّهته برجلك الممتدة، ستغسلينه أنت.

– سأغسل دماغك من كلامك هذا الذي يشبه ملامحك.

– ضحكا مطولا ثم عاد الصمت إليهما، أمسكت يده بهدوء وأزاحتها عن الورقة فتراءت لها كلمات لم تتقن فهمها فقالت:

– حدثني عن هذه الرواية وقبل كل شيء ماعنوانها؟

– حديثها طويل وشاق، أما عنوانها فهو «شهادة ميت عائد من قبر الخيانة». تتحدث عن الحب أو ليس لنا إلاّ الحب نكتبه، إنه حب كبير لم تبق له إلاّ خطوات ليصل إلى تتويج بالزواج. لما شعر بقرب الوصول قفز في محاولة للإمساك بذلك الهارب المتعنت فسقط متعثرا بحقيقة الخيانة، آه من تلك المعاناة التي أرسمها بالكلمات، أرهقني المساء فكل يوم أجد نفسي أبحث عن اللغة المتشردة التي ضيَّعت البوصلة أوربما تشوشت بفعل القدر الذي اهترأ جراء حياكته للمآسي الروحية المتكررة والتي أصبحت تشبه خبزنا اليومي، أتدركين؟ كان يريد الزواج منها متناسيا أنّ الزواج هو

إعلان حرب على الحرية وبداية إنتحار للفن الذي نمارس به حياتنا الشخصية، إنه مرض مزمن يبيد كل حلم بداعي الروابط الأسرية ومبدأ المسؤولية الذي لا يحقق طموح الحالمين بالسلام الروحي. إنه شبيه بالموت، فقط لا يقبرك في التراب إنما في ذاتك لتتعفن باسم تلبية الرغبات الدنيئة مع جسد يتهالك يوما بعد يوم.

- إختصر وأخبرني من أبطالها وماهو موضوعها فأنا لا أفهم هاته العبارات المتشنجة.

- متشنجة... التشنج أصاب عقول الكثيرين وحوّلهم إلى كومة من النفايا العضوية، أتمنى أنَّ النظام الداخلي لعقلك لا يزال يعمل فربما ستقتنعين ذات يوم أن نساء اليوم ماعدن قادرات على الوفاء لأحد.

- تتحدثون عن الوفاء كأنكم أسياده المخلصين...

- ربما لسنا سادة الوفاء لكننا أيضا لسنا آلهة للخيانة. الوفاء هو أن تشعل نارا قد تنير طريقك وقد تحرقك ولايهمك الاثنان فقط باسم الحب، فهو عبودية تتطلب الصبر بذريعة رابطة لا نملك إتجاهها أيّ ضمان.

- عد بي إلى لب الرواية وكفاك تشعبا وفلسفة..

- رواية واقعية تستمد أحداثها من واقع بشع سبب الكثير من الألم لأحمد الذي كان يعمل كمتعاقد مع الجيش طوال سنوات العشرية السوداء التي مرّت على الجزائر دمارا وفجائعا متتالية فكان صبره على الدماء التي لوّثت يده وضميره في حرب أبناء الوطن الواحد هو امرأة. دوما استبسل في صراع البقاء لأجلها وفي كل رمية رصاص

ينادي بصوت يهز جدران روحه «أحبها» حتى أن المعارك لما تشتد وتقوى نيرانها كان يرفع من معنوياته بتقبيل إسمها الذي جعل منه وشاما لا يزول، كان حبا شبيها بالخرافة في عنفوانه، فلاحدث يشبه حوادث العشاق، فالهيام الغريب هو ذلك الذي كلَّما إمتدت المسافة بين أطرافه كلما زاد توهجه، فهو يعلن عن وجوده في كل خطوة ابتعاد جسدي لا روحي.

أصيب ذات يوم في مواجهة مع مجموعة إرهابية بجبال الشلعلع[1]، كانت إصابته مميتة لولا قدر الله ولطفه كاد يستسلم للموت لولا إسمها الذي هزّ السماء ورفع صداه الجبال وهو ينادي «زوليخة» لن أموت» فما كان ليحافظ على الحياة ولم يكن يعنيه بقاؤه كما كان يعنيه حبه الذي إنتظر كثيرا فهي السنة العاشرة وهو يكابد المشاق ويعد ماستطاع ومالم يستطع من ضروريات وكماليات الحياة الزوجية وفي كل مرة تذرف دموع اليأس وهي تسأله عن خطوبة طال أمدها وجف ندى الإنتظار الذي كانت تمسح جبينها برطبه في كل انقطاع للصبر لتحيا من جديد.أحداث كثيرة ضمّتها هاته الرواية لن تكفينا الساعات للحديث عنها ووصف أحداثها.

– شوّقتني كثيرا.متى تكملها لأكون أوّل قارئة. لا أظن أنك ستبخل عليَّ بشرف هكذا.

– لا أدري فربما هاته الرواية ستنهيني معها، فما عدت أطيق نقل الخيال والحقيقة في هاته القوالب اللغوية العاجزة. حقا أنا مصاب

1– مكان ساحر وذو مناظر طبيعية خلابة جبل شاهق يقع شرق مدينة وادى الماء (ولاية باتنة) يصل علوه الي حوالي 1848م.

بارهاق مزمن يستوجب لشفائه إعمال قطيعة مع القلم لمدة قد تطول كثيرا.

- كيف إنتهى هذا الحب فعادة للروايات نهاية؟

- الحب لا ينتهي لأنّ نزوله السماوي لا يملك سبيلا للزوال فهو شبيه بهذا الكون الذي لا يزول إلا بزوال من عليه وفنائهم فهو لزام يختص بالأبدية.لكن أحمد كان مثالا للاخلاص فبعد أن أخبرته بفقدها للعذرية مااستطاع تقبل مابدى له خيالا، فطالما تغنّى بطهرها.وماستطاع أن يفقدها بيده ويتركها خلفه، فاختار أن يفقد عقله، فأصبح ذلك الشاب الوسيم مجنونا يسير في الطرقات، يسخر منه الأطفال.جَنَّ وذهب قلبه بعقله فتلف.الجنون كما هو معروف، كثيرا ماسلط على مرضاه شيئا ما أو تصرفا غريبا محددا، كانت علته المشي دون هدف وفي أيِّ طريق فتحول حلم والديه إلى فاجعة. يبكيانه طوال الوقت ويتضرعان إلى الله أن يشفيه من أزمة قد تطول مدتها وتختلف نسبة الامل في الشفاء منها من شخص لآخر.

أتعلمين يا ناريمان أن للحب قدرة على هدم عقول مرتاديه وإقحامهم في الخبل. الحب يملك قدرة خرافية على صنع المعجزات، كما أنّ له نفس القدرة على صنع الفاجعات، والجنون يبقى الخيار النهائي للعقل المتجرع له بافراط إن انهزم في معركة الخروج من دائرة الوهم إلى الحقيقة فالذي يفصل الحب والوهم خيط رفيع، فالبشرية كافة تعيش على مطلب السلام والحب لسبب واحد وهو توفير الراحة النفسية التي بفقدها يصبح الفرد جثة تتحرك دون ضالّة أو هدف.

لم ينتبها إلى مرور الوقت وخلو المدرج من ثلة الطلبة الذين كانوا منتشرين في زواياه فجلوسهما وحيدين يعتبر لدى أعوان الأمن شبهة تحتاج إلى التخلص منها فهم لا يتوانون في ردع كل اثنين يتجالسان مهما أوحى مظهرهما.

دقّت ساعة الجوع.أوقف مداده ونهض وهو ينسق سرواله الذي انكمش متنهدا فقد شعر أنّ كلامه كان كثيرا وهو الذي لا يتكلم إلاّ بميزان لسانه وعقله مسببا لنفسه الكثير من التعب على غرار ناريمان التي لا تتوقف عن الثرثرة إلاّ للنوم فدوما تعيب عليه قلّة كلامه وخفض صوته وتتهمه بتمثيل دور النجوم الكبار الذين تترصد الصحف زلاتهم وأخطائهم فهم محاسبون عن كل كلمة.

خرجا متوجهين إلى بتزيريا قريبة من المركز الجامعي القديم. قديم بأتم معنى الكلمة فليس في الكلمة إشارة إلى كونه عتيق وفقط بل مهترئ أيضا فهو أول من إستقبل مشروع تكوين جامعة محمد البشير الابراهيمي[1]. توفر المحلات التجارية جعلت له ميزة تحظى بها كلية الحقوق على غرار باقي الكليات التي تتمركز على بعد كيلومتر فتحتاج إلى وسيلة نقل أو انتظار النقل الجامعي من أجل الوصول إلى تلك المحلات وقضاء مختلف الحوائج.كانت البتزيريا شبه خالية إلاّ من عاشقين إثنين جلسا على مقربة منهما. أتى النادل بتلك الابتسامة العريضة المصطنعة.

قطعا كلامه بأحد الطلبات المعروضة في قائمة يحفظانها عن ظهر قلب من فرط تعودهما على ماتقدمه هاته البتزيريا التي

1- من الجامعات الجزائرية الفتية تقع بولاية برج بوعريريج وتم افتتاحها سنة 2000.

تعتبر الأكثر شعبية لدى الطلبة فالجودة التي تعمل بها نظير الاثمان المعقولة جعلتها تستقطب أعدادا كثيرة ففي الكثير من الاحيان لا تجد مكانا لنفسك وقت الغداء.

وصل طبقهما المفضل كان سيسحب شطرا منه لولا أن وضعت يدها على يده وأوقفته لتحمل قارورة الصلصة وتكتب فوق الطبق الذي لا يزال ساخنا «أكرهك».

تمعن في إبداعها الذي لم يعرفه من قبل ثم إبتسم قائلا:

أتعلمين أنّ نزار قباني يقول بأنّ أجمل حب هو الذي نعبر عنه بالكراهية...

صمتت ولم تجد ردا. شعرت بالإفحام. ماكانت تنتظر إجابة أو رد فعل صارم فعادته في التهكم والسخرية ما أتاحت لها أن تتوقع هذا الرد، خفق قلبها وهي تشعر أنها قد إنفضحت بحبها لمرّتين في يوم واحد وهذا موقف لا يشرف أنوثتها التي إعتادت الكبرياء وإخفاء المشاعر.

- ما الذي يدفع بك إلى التحاف هاته البذلات التي لا تروق سنك فنعومة أظافرك وبراءتك لن تغطيها بذلة كلاسيكية لا معنى لها.

- أتسخرين، أم تغارين؟

- تضحك. أغار منك؟ وهل جننت لأفعل ذلك وتواصل إطلاق ضحكاتها التي أثارت انتباه الجميع.

لم يجد من وسيلة يستعيد بها الهدوء سوى وضعه ليده على فمها. ما إن لامست أصابعه شفتيها حتى استقر صوتها في جوفها

واسترخت رموشها، وكأن إحساسا جديدا وغريبا تسلل إليها دون سابق إنذار، لم تعرف للتستر طريقا فقد وشت بها أحاسيسها التي ضاعت في لمسة. ماكاد يلتمس صمتها حتى التمس نشوتها فسحب أصابعه الوسيمة في خفة واعتذر بابتسامة متوجة بشيء من حمرة الوجه فقد أحسّ بإرباكه لأنوثة ما اعتادت الملامسة، فشفتاها العذراوين لا يزالان بغشاء خوفهما ينتظران الرعشة الأولى من حب تأخر.

قطع صوت غليظ ذوبان حسيهما فاستجمعا شتات الجوارح وعادا إلى اليقظة.

سخرية مليكة انتشرت في أرجاء المحل وزادها انتشارا صوتها الخشن الذي لم يعرف طريقا للأنوثة. رحبا بها بتقزز غير مسبوق فقد قطعت عليهما تودادا جميلا صنعه الهدوء وشبه الخلوة، أخذت تسرد جديدها وقد عاد إليها شيء من الهدوء..

– هل علمتم أنّ والدة أستاذ القانون الدستوري ماتت وقد لا ندرس أسبوعا، ثم تطلق قهقهة تعلن جهرا أنها فرحة لهذا الخبر الأليم، ردت ناريمان وملامحها قد إكفهرَّت:

– منذ متى نفرح بالموت، كم أنت قاسية ياماليكة...

– أنت دوما تنتهزين الفرصة لتبرزي حنانك أمام الغير.. تتكلم وهي تنظر إليه كي تشعرها بالتصنع والتظاهر.

تدخل بهدوء رجل يفقه غمز النساء. دعا مليكة إلى تناول شيء ما وراح يسألها عن حبيبها ومشروع زواجها العاطل منذ سنوات.

شعر أنه داس على موضع الألم وأحياه حين اغرورقت عيناها ولزمت الصمت. أحس بالذنب ولم يجد الكلام المناسب وهمَّ يعتذر منها إلاّ أنّها قاطعته وهي تجهش بالبكاء وتطلق تمتمات غير مفهومة.

مسحت ناريمان على رأسها ووضعت قبلة على جبينها رُسمت بأحمر شفاهها الذي أعادت ترميمه قبل لحظات، إعتدلت مليكة في جلستها وأخذت تسرد واقع قلبها المهشّم بعد أن سكبت شيئا من الصودا تعيد به البلل إلى شفاهها التي جفّت.

- إنّ الوضع الاجتماعي كثيرا ما يحرق القلوب بما فيها من الحب، كم حلمنا أن يصبح حبنا خالدا وأن تترجم أواسره إلى أسرة نعيش بها ولها ونهبها من أعمارنا الأيام والليالي، لكن دوما الأنين يشق البسمة ويكسر أيامها بحواجز نهرم ولا تسقط كجبال عتيقة لا زوال لها إلاّ بزوال هاته الدنيا ومن فيها.يوم قرر خطبتي إبتهج الجميع فكل أفراد عائلته وأصدقائه لا يزالون قيد الحلم. فهذا الإبن البكر الذي رفض الزواج من الكثيرات رغم إلحاح أمه لا يزال لغزهم المحير، وجاء اليوم الذي ينسحب من مائدة الشهوات ويدخل قفصا فيه شهوة الحب والأحادية وأيُّ حب نلنا.

أمه كانت تنتظر أن يرسلها خاطبة إلى إحدى الأسر المرموقة ذات الصيت والجاه وما أن سمعت اسمي وابنة من أكون حتى ثارت رافضة لهذا الزواج وأقسمت بأغلظ الايمان أن وجهي لن يلج بيتها مادامت على قيد الحياة ولا سبب سوى أني تلك اليتيمة التي إختطف الموت أباها وهي في عمر الرضاعة ليترك لها أما تصارع لوحدها الجَفَّاف في بيوت الأثرياء لسنوات ويوم رحمها الزمن،

أصبحت تشتغل عاملة نظافة في البلدية بأجر زهيد لا يدافع عنه سوى أنها في منصب ثابت ومستقر. هكذا أهانني الفقر أمام الحب وهكذا غاصت أحلامي في السراديب المظلمة لا أنكر أنه لم يتخل عني حبا لكنه تخلى عني كمشروع للزواج فهو يدرك جيدا أنَّ تصلب أمه لا يقضي عليه شيء وأنّ هذا الموقف المتجبر لن ترجع عنه وهي التي اكتسبت الكبر من المال الذي تجنيه من مشاريع زوجها الذي غادر البلاد آملا في توسعة أعماله لتحقيق ربح أكبر، فظلت علاقتنا قائمة لكنها تعاني الهشاشة فلا خير في حب لا يكبر وعاجلا أم آجلا سينساني إما بالزمن أو بامرأة أخرى تفرضها عليه أمه.

صمت الجميع وقد أطبق الحزن على الشفاه إلى أن قطعه قائلا:

- لاتسدي رواق الأمل ودعي شعاعه يسري فربما بالغد هناك حلم آخر محقق ولعلّ توقيت حظك لم يحن بعد فكما تشكين في أنَّ امرأة اخرى ستنسيه، سيأتي دورك لتقتحمي بوابة النسيان برجل يحبك ويخشى عليك حتى من الهواء.

إبتسمت بدموعها وعلى وجنتيها حمرة فاتنة وقالت وهي تمسح أنفها بمنديل ورقي:

- ربي يجيب الخير ولي حبها ربي مليحة.

- نطقا بصوت واحد.. سبحانوا....

قاموا. وهم يعيدون الكراسي إلى أمكنتها، سبقهم إلى القابض فدفع ثمن الغداء وغادروا نحو النقل الجامعي، حين وصلوا كان الاكتظاظ شديدا. ودَّعهما طالبا منهما التقدم نحو الأبواب المكتظة، أما هو فسيتدبر أمره.

ما فتئت حافلة النقل الجامعي تنطلق حتى ركن صديق قديم له سيارته أمامه سائلا إياه ان كانت وجهته هي منزله، صعد إلى السيارة وهو يشعر براحة فقد تخلص من التفكير في النقل الذي لا أمل فيه.

عاد إلى البيت تعبا، مرهقا وفي نفس الوقت يحمل على عاتقه أحاسيسا مربكة لا تخلصه منها إلاّ الكتابة. بعد حمام سريع حمل أوراقا بيضاء وقلما واتجه إلى حديقة البيت يبحث عن إلهام يفرغ فيه ماأثقل كاهله كي يتمكّن من النوم لاحقا دون أرق فمشكلة الذي يكتب الشعر أنّ هاته الكتابة تصبح جزءا من حياته لا يستطيع الفرار منه.كما أنّ أحاسيس الشاعر إتجاه ألم الغير أكثر شدة من غيره، فكثيرا ماأمضي هؤلاء ليالي في الوحدة يصارعون آهات قرائهم أو زمنهم إن تعكر وفقد صفوه بالنزاعات الروحية والمادية التي وان حلّت فانها تجوع القلب فرحا وتجعل من الحواس مجامرا مجرّدة من الأحاسيس الجمالية، فلا ترى في الجميل إلاّ العيوب فتحتضن الظلام ويبقى خليلك الذي لا يفارقك.

في اليوم التالي إستيقظ ثملا بأحلامه الكثيرة التي إنهمرت عليه في ثنايا فراشه الوثير.فمنذ زمن عقد قرانا مع الأحلام التي تقاربت مع أمانيه في الواقع الشحيح فخياله الموسر كثيرا ما أقحمه فيما تشتهي نفسه من الرغبات القصية لذلك دوما في أحاديثه عن الأمنيات يقتضب القول مشبها نفسه بأضغاث الأحلام التي تمر كما تمر سفينة في بحر فلا تثير فيه شيئا.

الانسان دوما حين يحاط بواقع مبتذل فانه يبتدع أشياء كي تزيل عنه المرارة، لكن دوما تتعطل أبواق السعادة كي تصدح الرداءة،

فجراح الوطن الذي نال منه أبناءه، تُبكي ثورته التي هزّت التاريخ ودونته بطولة وأمجادا جميلة، أما اليوم فالمبادئ التي رسمها سادة الحرية الأولون قد ضاعت في قسمة لصوص نهبوا الأحلام والأماني وتركوه جثة باسم الشرعية الفاسدة التي أعطت الحق لمن لاحق لهم في أن يترنموا بالتضحية بنا أجسادا وأموالا كي ينهبوا خيرات الجماعة ويغتصبوا ماتبقى من أعماقنا ومن دموع القلب الجريح، فكثير من الدفاع في هذا الوطن ماكان لنا بقدر ماكان علينا، ونحن الذين ظننا أنه مكسب نهدم به التطرف العقائدي بمختلف صنوفه، فكنا في طرف آخر وأيّ طرف الذي يقف فيه شعب يشاهد إقتسام الوطن بعينين فارغتين لا تُملأ إلا دما. قوضت أركان الابتسامة، فأين ذلك السيف البتار الذي سيقتلع أولئك المجرمين وأي أجل مسمى قد يحين ولا يحين.

دخل الجامعة بمعنويات متذبذبة، لا يدري إن كان سيقدر على مواصلة الدراسة في يوم شاق يُبدي الملل من ملامحة الأولى الباهتة، تفاجأ وهو يرى عبد القدوس يجلس مع فتاة جميلة في ركن من أركان الحديقة، وبدا تعجبه من اتساع مقلتيه وتساءل إن كان قد شفي من الحب الذي أعماه سابقا وجعل منه كومة من الحزن. أوقف الأسئلة التي تدور بذهنه وهو يبتعد عن المكان خشية أن يراه فيحرجه.توجّه نحو العمادة باحثا عن السكرتيرة التي ترك لها ملفا يتطلب توقيع العميد، ماان وصل أمام الرواق الأول حتّى اهتز فؤاده الذي اعتاد السكون وأحس أن الفصول الاربعة تعبر حواسه في لحظة إنقبض قلبه وهو يرى تلك الحسناء التي إنبهر بها سابقا وضيَّعها في لحظة حياء.

إنتبهت لوجوده وكيف لا ونظراته تشق الهواء وأنفاسه تمد جناحيها نحو ملامحها اللطيفة، إقترب منها قليلا فألقت نسائم عطرها أمواجا رطبة تدغدغ أنفه وتحيي أحاسيس الجمال الخامدة.كاد يلقي عليها التحية لولم يصب صوته بعطب فبات شبيها بالحشرجة.

أحسّت بضيق ممرات صوته فقطعت عليه اجتهاده بابتسامة وردت عليه تحية لم ينطقها وهي تقول: صباح النور يا طالب؟؟

سار مبتهجا بضع خطوات، إلاّ أنَّ رنة «طالب» في أذنيه لا تزال تدق، واصل السير وألف سؤال يتوالد في ذهنه، ماأدرك سر هاته الفتاة أهيّ أنثى مشاكسة تعمّدت تدويخه بخلق موقف غريب أم هناك أمر آخر ما إستطاع فكره إليه سبيلا.

ماوَجد طريقة يكفكف بها أحاسيسه التي تنهمر بشدّة فجمالها ماكان عاديا، وماستطاع أن يُخرج مشاعره من الناووس الذي كانت فيه وهاهي دقات قلبه تتسارع وهي تبتعد شيئا فشيئا.

وقفت ناريمان قريبة منه تلاحظ شروده.ماكان فضولها سيسمح لها أن تواصل الوقوف على بعد خطوات وهو في حالة تحجر، تقدمت نحوه تمرر يمناها على أحداقه كي تخرجه من التيه الغريب الذي إنتابه.

- هل رأيتها، هاهي في آخر الرواق تبتعد...

زيديني عشقا.. زيديني[1]...

يا أحلى نوبات جنوني...

1- مقتطف من قصيدة «جسمك خارطتي» للشاعر الكبير نزار قباني.

يا سفر الخنجر في أنسجتي..

يا غلغلة السكين...

تقهقه ناريمان كعادتها وتتهكم.

- ياليتك نطقت بشئ من تَرهات شعرك، ألن تكتف من نزار قباني؟

- نزار من الشعراء الذين لا نخاف شعرهم فهو يمنحك على قدر الموقف الكلام الموزون الجميل، أما شعري أنا فليس فيه من كلام العشق شيء فكله ترعرع في وهاد الخيانة والألم، فنمى هناك حيث لا لغة للفرح، أما قولك ترهات فلو شرحت لي كلمة ترهات شرحا معجميا فسأستقيل من الشعر يا غيورة..

تضحك بشدّة وفي عينيها حيرة فقد شعرت بهزيمة ما، ثم واصلت:

- لا أنكر أنّها شبه جميلة لكنها تبدو كبيرة، ربما هي أكبر منك بسنوات.

- أصبح يرهقني يا ناريمان كسرك لأحلامي، فهلاّ صمتٌّ قليلا علّ الهواء يرتاح من ضوضائك.

نظرت اليه مطولا بعينين ممتلئتين، بأقوال لا تترجم وفي لحظة صمت كل شئ، إستدارت إلى الجدار وعادت إلى محياه وهي تجهش بالبكاء.

(04)

وَمَالِي غَيْرَ الوُد منْكَ إرَادَة
وَلاَ فِيَ سِوَاه لِي إلَيْكَ خِطَابُ

إبن حزم الاندلسي

جلَس ودموعها تنهمر وصوت العويل يملؤ الأفق الذي يجمعهما، ما استساغ بكاءها وما دّله عقله على فعل يناسب الموقف وهو الذي لم يدرك بعد سبب البكاء المفاجئ الذي حلّ في لحظة كان قلبه مليئا بالعشق لامرأة لم يعرف عنها شيئا.

إحتار، أيضمها إلى صدره أم يتوسل سكونها أو يكفكف دموعها بيديه الباردتين.

سحبها من يدها بجرأة لم يمتلكها من قبل وأجلسها على يمينه وركزّ نظره على عينيها ثم إستعاد أنفاسه وراح يطرح عليها سؤال الحيرة بملامحه وصوته الدافئ:

- مالذي يبكيك ناريمان، أتشعرين بألم ما؟؟

– أي ألم تتحدث عنه، لم أعد أعرف شعور الألم لأنني أصحبت هو، بصفاته وملامحه المجعدة.

– لكن مالأمر؟ لم تتحدثي بهذا المنطق من قبل فما الذي جرى لك في لحظات.

– لحظات؟ عجبا لقسوتكم أيها الرجال، تعد نفسك شاعرا وأنت لا تملك مشاعرا تحافظ بها على إحساس بريء.

كاد يضحك وهو يلحظ تهجمها على لغته وهي لا تزال تموج بين سحائب الدموع وحديث الألم.

– لكن ماذا فعلت لك؟

– اللّعنه، فضحتني دموعي التي إنهمرت على ضفاف قلبي آلاف المرات وهاهي اليوم تسيل وتندفع حقدا على عينيك اللتين ما انتبهتا إلى ضربة القلب في رؤياك، ألم تشعر بأنَّ رموشي تغازلك وأنت تغازل امرأة لا تعرف حتى إسمك. ألم تشعر بشئ؟

أحبّك.. أحبّك.. أح... وزادت الدموع في عينيها كثافة كأنها سحب في أمسية شتوية ماطرة، لم تكمل كلمة الحب الثالثة كما توقع وعجّلت تغادر وصوت كعبها العالي يزداد شدة.

لحق بها دون جدوى فوقوفه مشدوها أخّره للحظات كانت كافية لأن تبتعد وتصل إلى البوابة الرئيسية التي لا تتيح له اللحاق بها بعدها لأنّ المكان مكتظ وقد يجلب عليهما تطفل الأعين والألسنة وهذا مالا يرغب فيه أحد.

إتصل على هاتفها المحمول عدّة مرات دون جدوى..

دخل إلى مقهى الجامعة متثاقلا يشعر بوحدة داخلية، شعر بزعزعته لمشاعر ناريمان التي طالما رافقته وكانت صديقته المقربة فكم من الأسرار تبادلا وكم من المصاعب تشاركا. جلس وحيدا، جاءه النادل يطلب خدمته، أشار عليه أن يأتيه بقهوة مركّزة فربما تحرق همه بنكهتها ومذاقها المتميز فهي التي تغير الطقس الداخلي لنفسيته حين تكون على وشك الانكسار.

فاجأه عبد القدوس من الخلف وهو يقول:

- ياشحيح هل بضع دنانير خسارة في صديقك، لم لا تتصل بي تماما؟

رد عليه بعينين شبه مغمضتين:

- وماذا لو أعدت عليك سؤالك يا عبد القدوس فهل إتصالك أنت يحرِّمه الشرع أم هو معجزة لا تتحقق.

- شعر عبد القدوس بتوتر من الرد الكافي فغيَّر مجرى الحديث داعيا نفسه إلى الجلوس وقد أحسّ بتعكر أجوائه وشعر أنه بالغ في المزاح والثرثرة بعد صمت قصير كان يضغط فيه على فنجان القهوة يكاد يهشمه.نظر في وجه عبد القدوس الصامت ونطق بتنهد طويل زاد من حماس عبد القدوس لمعرفة السبب الذي جعله يمتلء تجهما.

إنها ناريمان، صديقتي المقربة مني روحا وجسدا يا عبد القدوس، وطالما كانت سندي الذي لا يتخلى عني قويا أو ضعيفا.إنها سيدة لا يكررها الزمن ولا تمتلك شقيقة أو شبه في حسن الخلق وجمال الروح.

أتعلـــم؟

طالما شعرت أنّ إحساسها يحاصر حواسي وأنّ كلامها الذي لا يقال أكبر بكثير من الذي تقوله، فهي الحسّاسة التي تخشى على أحاسيسها الفضيحة والإنكشاف، إنها عالم خفيّ كشفته في لحظة عري من الكبرياء والتظاهر

أمام دهشة عبد القدوس وعدم فهمه لكلامه، كاد يسأله عما جرى إلاّ أنه إسترسل من جديد وهو يمسح على رأسه بيديه.

– ياصديقي كم سبق وأن مات الفرح بين ثنايا كلامي وأنا أصارع الإحتضار العاطفي في هذا الزّمن المر فلا يروقني اليوم أن أواصل رمي الأزهار فوق العابرين على قلبي، ناريمان لن أخسرها مهما كلّف ذلك، لكن غير مستعد أن أكلف قلبي بالرحيل إلى أسوارها وهو مقيم بامرأة لا يعرف عن تفاصيلها شيئا، وامتلكت زمامه بجمال لم يسوَّق بعد، أخاف على أحلامها أن تصبح رمادا بفعل قلبي الذي ما إعتاد الإنخطاف المفاجئ بالحب، فبعد كل السنين التي أمضيتها عاشقا للهباء، أصبحت مشاعري ضريرة لا تتقن إلاّ فن الإحترام أما الحب فعليه سلام الأحرار.قد صارحتني حين إنتهكت حُرمة الغيرة لديها وأوسعت قلبها كسرا وهي تتقبل تغزلي بغيرها أمام أحاسيسها الرهيفة.

نطق عبد القدوس بعد إنصات عميق:

– أنَّ امرأة تحبُّك وتخشى عليك ومنك الضياع بين أحضان امرأة لا تملك شعورا إتجاهك هي جوهرة لا يكرّرُ عشقها في هذا الزمن الغريب.

دهش أمام حكمة عبد القدوس المفاجئة، فمن أين حلّت عليه وهو الذي لم يعتد إلاَّ الإستهتار ولو كان الأمر على قدر من الجد والصرامة.

فتحت أفق الخيبات وتعالت أصوات النّكد في مجلس لم يطل كثيرا، حيث قررا المغادرة إلى مكان فسيح يخلوا من ضباب السجائر الذي إختنق به المكان.

ماإن خرجا حتى فاجأه عبد القدوس وهو يستخدم حاكوما لفتح سيارة جميلة مركونة على بعد أمتار من المقهى، أعلمه أن السيارة ملك لصديق، فقد لاحظ أن علامات الحيرة قد إرتسمت على وجهه.

توجّها إلى خارج المدينة في طريق معبد يتيح لمستعمليه الإسراع في طيِّه وماهي إلاّ دقائق حتى وجدا نفسيهما أمام طريق طويل سهبي تكاد حوافه تخلوا من الحياة، سأل عبد القدوس عن وجهتهما وهو يطلب منه كبح السرعة لأنه يعلم بحداثة رخصة سياقته وعدم إمتلاكه للخبرة الكافية للتحكم في المركبة في طريق كثير الالتواءات.

كانت وجهة سياحية نحو أيّ مكان يحقق الراحة النفسية التي توفرها الطبيعة للإنسان بمائها وخضرتها البهية.سارا طويلا وصوت المذياع لم ينقطع تماما فأجواء الخيبة والشعور بالضيق لا زالا يطاردانه، أمّا عبد القدوس فبطيبة قلبه حاول التخفيف من آلام ذاكرته التي إستعادت كلّ الخيبات بشئ من اللهو والموسيقى الصاخبة دون جدوى.

وصلا إلى منطقة المعاضيد[1]، أوقف عبد القدوس المحرك ودعاه إلى الترجل وإستكشاف المكان.دهش من روعة المنطقة وجمالها فهاته الأرض لم يطأها من قبل ومامتّع عينيه بمناظرها الخلابة قبل هاته المصادفة.

على بعد أمتار.آثار كبيرة منتشرة، وعلامات التآكل بادية عليها، فكّر في زمنها فهي تبدو من بعيد كآثار رومانية هشّة وكلما تقدّم أكثر زاد فضوله في معرفة البعد التاريخي للمنطقة.

وصل أمام قلعة شاهقة الإرتفاع، رفع عنقه فيها وواصل ينظر إليها نظرة الإستكشاف.وقف أمامه عبد القدوس وهو يقول:

إنها قلعة بني حماد ألم تزرها من قبل؟؟

- لا.. هي المرة الأولى التي أقف أمامها ولم أعلم من قبل بوجود هاته الآثار، فعلا البحث في الأدب أنساني تاريخ هذه الأرض، أرض الوطن.

تعجب عبد القدوس فطالما ظنّ أنّ معلومات صديقه لا تنضب واعتقد أنه المثقف الذي لا يجادل. وجد الفرصة ليثبت له أنه مثقف ويملك معلومات لا يملكها، لكن لن يفعل ذلك حتى يشفي غليله من ديمومة الاستحواذ المعرفي والثقافي الذي إمتاز به.

- معلومات مثل هاته، على قدر من البساطة لا تعرفها وتدّعي أنك شاعر ومثقف، ألم تعرف من قبل البكاء على الأطلال هاهي أمامك الآن، أطلال دولة حماد بن بلكين.

1- بلدية تابعة لولاية المسيلة - الجزائر-.

– عن أي دولة وأي أطلال تتحدث يا عبد القدوس، وأي وحي تهاطل عليك الآن؟

ضحك عبد القدوس بصوت خافت، ضحكة «صفراء» كما يقول المثل الذي أطلقوه على ضحكة النفاق التي تستخرج من جوف صاحبها بجهد وكذلك لا تكون نابعة من القلب، أي مصطنعة.

صمتا قليلا ليتركا للمكان دورا يبرز فيه الأشياء الجميلة حيث تمتزج الأنفاس الثخينة بنفس الطبيعة النقي.ثم عاد عبد القدوس إلى شروحاته:

– إنَّ هاته القلعة تعتبر امتدادا لدولة حماد بن بلكين وقد شيدت سنة 1008م في هذا المكان الذي اختير لكونه يتمتع بالحصانة لأن سفح هذا الجبل يعلوا بـ 1000 متر فوق سطح البحر وهو الأنسب لمراقبة العمليات العسكرية في الأماكن المجاورة وقد بني هذا الصرح في مدة ثلاثين سنة.

قاطعه قائلا: لكن ألا ترى أنَّ أجزاء منها تضررت ويبدوا أنّ قطعا كثيرة قد ضاعت من محيطها وربما سرقت؟؟

– وطن سُرقت فيه الأحلام، فكيف تنتظر ألاّ تسرق آثار ثمينة فالشئ الذي لم يأخذوه تركوا الغير يأخذه فأغلب ماوُجد هنا من قبل موجود الآن بمتحف الباردو والبعض الآخر في باريس كما أنّ الإعلام لا يلتفت تماما إلى هاته الآثار الثمينة إلاّ ماحدث قبل عقدين أو أكثر حينما قامت منظمة اليونسكو بترميم الموقع.

أنهى عبد القدوس إستعراض ثقافته وسارا إلى أن شعرا بالإنهاك فجلسا متباعدين يتبادلان التنويه بمختلف مايعبرهما من جمال وروعة.

- إذن يا عبد القدوس نحن الآن في المعاضيد، المنطقة التي سمعت عنها كثيرا.

- ماذا سمعت؟ عن الصخور مثلا؟ وبدا شيء من الحمرة على وجهه فقد تسلل إليه الشك في أنه يعرف المكان وتجاهل ذلك من أجل إختبار ثقافته.

- سمعت عن أحلام.. أحلام الصحفية التي حدث معها الكثير هنا، إنها التراجيديا الواقعية يا صديقي.

تنفس عبد القدوس تنفسا عميقا فقد كان ينتظر منه أن يسخر من معلوماته أو يضحك عن إستعراضه الثقافي، التاريخي لكن ذلك لم يحدث.

- مالذي حدث للمسماة أحلام[1] وكيف ذلك؟

مدّ نظره إلى آخر الأفق، تنفس ببطئ ثم تنهد بحسرة وقال:

أحلام امرأة المواقف.لم تسمح لنفسها بالهرب من مأساة الوطن إلى الأمان الذي لم تعرفه منذ اندلاع الشرارة السوداء التي أشعلها متطرفون لم تشق الرحمة لقلوبهم أيّ طريق فكانوا الساديين الذين ماحنَّت قلوبهم وهم يرون حمامة بيضاء تنزف. إن لم يبك الحمام يوما فقد بكت أحلام مكانه وبكت كثيرا في ظلام الليل الذي شقّ خاصرها ظلما وطغيانا.

1- أحلام بوساسي من صُحفيات جريدة الشعب الجزائرية اغتيلت أواخر 1998م.

قاطعه عبد القدوس...

لكن... لم ينتبه له وواصل سرد حكايتها:

- كانت صحفية جريئة.تعرَّضت إلى المضايقات ككل زملائها الذين غدروا كالسعيد مقبل ورابح زناتي وأورتيلان وغيرهم لكنّ ذلك لم يثنها عن مواصلة قول الحق وكتابته إلى أن حانت ساعة هبوب الرياح على شمعة الحق فأطفأت عمرها في جولة سياحية في هاته المنطقة التي ماظنّت أبدا أنّ أيدي الغدر موجودة بها أو ربما طاردتها. لقد أمسكوها هي وصديقة لها، أما صديقتها فتخصلوا منها على الفور فلا حاجة لهم بها خصوصا وأنها قد أبدت عنادا ومقاومة فكانت رصاصة واحدة كافية لجلعها تصمت إلى الابد، أما أحلام فقد علمت أنّ جناحيها كُسرا وأنّ المداد الذي تكتب به قد نضب، فهي ساعتها التي لا فرار منها فكانت صامدة في وجه القتلة فلم تبد أيَّ ضعف.قد خُيِّرت بين العيش في فرنسا أو سويسرا لكنها إختارت هذا الوطن الذي نكّل ببعضه البعض دون رحمة.

تداولوا على إغتصابها وفعلوا بها مالا يفعله الحيوان المفترس بطريدته حيث شوهوا جسدها، أحرقوه، قطعوا أعضاءها وهي تصارع الحياة فلم ترحمها إلاّ بعد أن أماتتها آلاف المرات.

هذا مارواه أحد الشهود والذي نجا بأعجوبة..

أحلام ماتت ومات آلاف الشرفاء ولم يبق إلاّ حزن يكسوا أهالينا في كل ذكرى، كيف لا ومرتكبوا تلك الفظائع أصبحوا روائيين يسردون الحبكات على مسمع كل قريب.

تغيّر مزاج عبد القدوس وظهر على محياه حزن عميق، فلهوه ومزاحه لم يسلب منه الحس الرهيف فدوما يتأثر بهاته القصص الأليمة خصوصا حينما علم أن أحلام قريبة لصديقه وأنهما قد تشاركا الطفولة فمع أنها كانت تكبره كثيرا إلاّ أنها طالما عاملته كصديق حميم.

عادا إلى الديار والشمس توشك على الغروب، نسي موضوع ناريمان وربما تناساه، فهذا اليوم بقدر ماكان جميلا بقدر ماهو شاق.

دخل إلى الجامعة صباحا، إتجه إلى لوحة الإعلانات علّه يجد منشورا جديدا، فدوما في بدايات الموسم الجامعي تكثر التوجيهات للطلبة.إنتبه إلى أنّ غيابه في اليوم الفارط قد أخّره عن تدوين البرنامج الجديد فهو لم يكن حاضرا حينما عُلق بل كان بين الصخور والمرتفعات يدون حديث الوجدان هو وعبد القدوس على جدار الذاكرة.

تفاجأ وهو يرى أن الحصة التطبيقية الخاصة بالقانون التجاري قد مرّ من زمانها ربع ساعة فماكان له إلاّ أن يسارع إلى الحجرة المخصصة لهم لعلّ عدم علمه يشفع له عند الأستاذ المطبق.

حينما وصل أمام الباب أوقفه إستحياؤه عند العتبة فقد خشي أن يطرده الأستاذ أمام زملائه.

دقق وأنصت فعرف أنها أستاذة أيّ امرأة وهنا زاد إحتمال تعرضه للزجر فقرر ألاّ يحضر الحصة مادام أول غياب فلن يضره في شئ.

ما إن استدار ماشيا إلى وجهة تخرجه من هذا الدهليز المهترئ حتى أوقفه زميل له ودعاه إلى تجريب الحظ لأنهما لن يخسرا

شيئا. فكّر قليلا. أدرك أنّ في زميله إندفاعا وأنه لن يتحمل شيئا لو رفضت الأستاذة دخولهما فهذا المندفع أبدى إستعداداته لطرق الباب والتحدث إليها.

طرق الباب وفتحه، نظرت اليه نظرة حادة وهمت أن ترفع يدها لتقول له إرجع من حيث إتيت إلاّ أنّها توقفت؟؟

لمحته وراءه يبدو عليه الحياء فهو لم يتجرأ أن يظهر بمحياه الخجل أمامها.أشارت عليهما بالدخول وبسرعة.

ما إن ظهر ووقعت الأنظار على بعضها حتى إهتز كيانه وبهت، فقد شعر أنَّ أحاسيسه قد تجمدت وأنّ عينيه تخدعانه وشئ غريب بدّل له واقعه.

ما الذّي يحدث إنها تلك الأنيقة التي أسرت حواسه وجعلت من الواقع خيالا في مشاهد عدة، فهل هذا خيال محض أم خطأ ما، دخل متباطئا، يسارع قلبه إلى التفتيش عن حلول للخفقان الذي يهز أرجاءه، كيف لا وهو يراها أمامه بحلتها تقف مدرِّسة لفن الجمال قبل القانون.

جلس في آخر الصف ينظر اليها دون انقطاع، لاحظ زميل له ملامحه المضطربة فسأله بنبرة السخرية:

– هل أعجبتك؟ ضحك ثم قال: إنها في سن أمك فانسى الأمر ثم إنها أستاذتك.

رد عليه وهو يحدق بها:

– إن امرأة كهاته قد تغير مجرى التاريخ بل وتعدل فيه فكيف لك أن تفكر في عمر جمالها وبالعمر الذي سبقتني فيه إلى الحياة.

– صمت قليلا ثم تمتم... «مجنون». لم يجد الرد المناسب أمام المعادلة الصعبة التي وضعه أمامها.

الحب لايعترف بحاجز العمر ولن تسدّ شهوته بضع سنوات من زمن عجول أصبح الناس لا يفرقون بين أيامه، حتى أن الأعمار صارت ساعات رملية تفنى على عجل فأصبح كل شيء عابرا.

مرّ الوقت وما استفاق إلاّ وتلك الحسناء تعلن نهاية الحصة فهو لم ينتبه لشئ فحين كانت تلقي الدرس كان يدرُس معالم الجمال فيها ويبحث عن تحديد كل أبعاد الأنوثة التي استوت في رحاب ماتملك من فتنة آسرة.

حجز لنفسه مكانا في ذلك الدهليز الرحب، يرى الأشكال والألوان تعبره دون أن تعيره أيّ اهتمام، أحسّ بأنّ الوحدة تصول وتجول فيه فتذكر ناريمان المرأة التي أعلنت حبها له في موقف كاد يوقف عقارب الزمن خرج من الدهليز باحثا عنها فأول مكان فكّر فيه هو الحديقة التي تعتبر ملاذ الخائبين والعاشقين، لكن مليكة قطعت طريقه بابتسامة ساخرة وهي تسأله عن وجهته فلم يجد جوابا.

ماكان له أن يقول بأنه يبحث عن ناريمان فربما مليكة ستفتح ألف أفق للفضول والتشكيك في علاقتهما وماكان له أن يقول بأنّ لا وجهة له لأنه واثق من أنها سترافقه مابقى في الجامعة وهو لا

يحتمل عريها الذي يثير إنتباه العابرين والقاعدين ولا سخريتها ولهوها الذي لا يعرف الانقطاع.

أخلطت أوراقه وأفحمت نواياه وهي تمس جدار قلبه بذكرها لما يحركه بل ويهزه:

- قيل لي أنَّ الأستاذة الجديدة المسؤولة عن التطبيقات قد فتنتك وأنّك لم تسحب عينيك عن ركح جمالها مذ نظرت إليها...

- من قال ذلك؟ ياللعجب..

- لا تدّعي أنّك برئ فأنا واثقة من أنّ قلبك قد اقتلع من مكانه وأنّ أحاسيسك قد ثارت فأنت عاشق بامتياز ولا تناقشني في ذلك.

صمت قليلا ثم عاد إلى التأفف وهو يقول كل شيء تعرفوه.... حاجة ماتخفى..

- هل يخفى القمر يا صديقي إنّها «هيام» التي حملت مافيك من كبر ورمته إلى المجهول. آآه لو كانت تناسبك سنا لرأيت بأم عيني كيف يتحول المتكبر إلى خاتم في الإصبع.

لم يكن مهتما لما تقوله فلفظها لإسم «هيام» تركه على هامش التفكير فقد إختلطت الأمور على مبادئه فوجد نفسه يتخلى عن كل القرارات ليكون سجين حسن لن يحصل عليه إلاّ بمعجزة ما.

وإذن إسمها هيام أيُّ إسم هذا.. وأيُّ عشق جلبه عليّ، فكر قليلا فوجد عذر إتصال عبد القدوس كيّ يفر من مليكة فقد شعر بحاجة ملحة إلى الهدوء والسكينة.

كلّم عبد القدوس الذي كان في صوته علامات للفرح والسرور. أراد أن يعرف سرها دون جدوى، إتفقا على الالتقاء أمام مقهى الجامعة مساء على الساعة الخامسة.

عاد من جديد محاولا تذكر معنى إسم هُيام المعجمي فقد مرّ عليه واستخدمه في إحدى القصائد الغزلية.

الهُيام هو أشدّ العطش، وهو أيضا داء يصيب الإبل فتهيم في الأرض لا ترعى كما هو الجنون من العشق...

ياإلهي لا معنى يصلح لأن أتيمّن به والأقرب هو الجنون من العشق، صعب أن أتعثَّر به في أول هجرة نحو امرأة لا أملك منها إلاَّ عطرا هاربا.

آه أيّها الزمان، كم أتمني نوما نرجسيا أختلي فيه بكبرياء الحب المضاء باسمها.

إنتابه شرود عميق وواصل يُحدث نفسه:

هل سيأتي يوم أتوسّد أرداف الحب وأنام كمن به الحمام وهل سأصبر على عرق حار يتصبب على مافيّ.ليست لي وليس لي سواي وأنا المبحر تحت سماء تتساقط، تكاد تهوي. رباه إرحم..

ماكان تفكيره لينقطع لولا أنه لمح ناريمان تقترب من بوابة الخروج فلملم أفكاره وراح مهرولا خلفها وما إن اقترب منها حتى نادى عليها: ناريمان... ناريمان، لم تردّ عليه وتعمّدت ألاّ تبالي به ليس هجرا له ولا كرها إنما حياء أنثى خالفت قواعد حواء وأعلنت عليه الحب في لحظة ضعف عابرة.

أمسكها من يدها، تشابكت أصابعهما فتوقفت مشدوهة.

نظر في عينيها بكل تركيزه، شعرت بغيمة من القلق والخوف تخترقها وتجبرها على الحديث إليه.

- ناريمان مابك؟ أوقفت زمني بهذا الجفاء، التاريخ وفق عينيك يمشي وعبوسك قد يأخره لذا أخشى من حزن القلب الذي يزداد كل يوم ضيقا وخوفا.

دعاها إلى الجلوس بالحديقة، سارت معه هادئة وصامتة تفكر فيم سيقول وبما ستردّ عليه فخطوات الحب دوما تأخذنا قسرا إشتهينا أم لم نشتهي فللعاطفة فلسفتها التي تسيِّر الإنسان وفق مايمليه القلب.

- ناريمان لم تجنبتني ولم بدَّلت عقيدتك إتجاهي ألم يحزنك أنّك جعلتني أشعر بالبرد أكثر.

تكاد تضحك إلاّ أنّها حافظت على إستقرار ملامحها..

- ماعلاقتي بالبرد والطقس؟ ألن تتخلّ عن أسلوبك هذا؟

- ربما لم تشعري ببرودة الأشياء الدفينة ولم تطلي على الدّاخل المهجور، قد كنت لي خير الرفيق وأنا أسير وحيدا في دروب الحزن، سأشعر بالبرد أكثر كلّما غبت فطيلة الأيام التي كنا نتواصل فيها كنت أشعر وكأنّك تمسكين يداي وتنفخين فيهما لكن بعدك أنت لن يحاول أحد تدفئتي وملاطفة جفافي.

- صمتت مطولا، وقفت.مشت بضع خطوات، حدقت في عينيه، ثم عادت لتجلس أمامه بشكل لم يترك أيّة مسافة بينهما وكأن مسافة الأجساد ستختصر مسافة القلوب.

شعر بأشياء تتحرك بداخله وهي تخاصره، أردافها تلامس أردافه وكأنها تتعمد إضرام النار بينهما فهي فاتنة وأنوثتها قادرة على إرباكه.

- لم أنت أنيق اليوم؟

- الأناقة في عطرك الذي يبعث الرغبة في الحياة..

شعرت أنه يلمّح إلى إقترابها الشديد منه، وتأكدت من ذلك حينما رأته يحمرُّ وهو ذابل العينين، إنتظرت للحظات لتسحب جسدها بضع سنتيمترات وبقلبها رغبة في الإجتياح.

عاد الهدوء إلى علاقتهما لكنّ الصمت كان أكثر حضورا فهي لم تعد ناريمان التي يعرف فمنذ أعلنت الحب أصبحت أكثر حياء من قبل.

لم يعد يفهم مايجري حوله وقد أدرك أنَّ للجمال فلسفة فهو سريان النسيم في الروح وموت الألم، إنه تصوف آخر لا يشعر به إلاّ ذوّاق تربى عاشقا لكل تحفة إلاهيّة أوجدها الله.

توزَّع شعوره وتفرّقت أحاسيسه بين امرأة تحبه وأخرى سيطرت على قلبه دون شيء يجمعه بها.نظر إلى ناريمان مطولا ثم قال:

- يا صديقتي كلّما حاولت الوصول إلى أفكار مطلقة تزيد هواجسي، لحد الآن أغرق في التعقيد ولا أجد أيّ خريطة للمرور إلى حريّتي التي تمنحني راحة العفوية وتخرجني من عمق الهوس والظلمة.

ردَّت ناريمان بصوت خافت:

ألم تكفك عفوية حبي، هل إنتصرت وأنت تراني أتعرَّى من كبريائي أمامك، شاعر؟ أين هي المشاعر التي تكتب بها، لم أحب

الشعر لكن رهاناتي على المسارات الملتوية لقلوب الشعراء دوما تعطيني الأمل.

- المرأة الأنثى التي يسجلها تاريخ الحب وتدرج في حكاياه هي التي تحب الشعر وتعتنق مذهبه فماهو إلاّ صوت امرأة في ليل بارد وسكون رجل أمام صوتها لذا أعلنت الصمت.

دوما تتحاشى النزول معه إلى أروقة الفلسفة لأنّها تخشاه. أصبحت تتحرى البساطة والسطحية في كثير من الأحيان. وكمن وجد مخرجا تذكّرت روايته وسعيه في الأدب، فسألته عنها وعن أحمد.

- الرواية.. آه لا يزال أحمد مجنونا يطوي الأرض وقريبا سأُجن أنا من فرط وحدتي وتعلقي بأبطالي وأوراقي.

- لكن لماذا تقول هذا، أعلم أن لديّك أصدقاء كثر؟؟

- كلّما كبرت في الأدب نقص عدد أصدقائي، منهم الحاقدون ومنهم الذين عطّلوا أحلامي فتخلصت منهم، لم يبق إلاّ عبد القدوس. شكرا لأنك ذكرتني بأن موعدي معه على الخامسة.

ما إن أكمل حديثه حتى لمح مليكة قادمة من بعيد ولا يشك أبدا في أنّها ستتحدث عن هيام وهذا ماسيفتح جرحا آخر فعجّل يودع ناريمان وهو يعدها بأن يتصل بها ليلا. مشى بضع خطوات، أعاد النظر إليها فرأى حزنا يملأ وجهها، لأنها لم تجد جوابا في كلامه لا ضمنيا ولا شكليا.

واصل وهو يقول:

– لا سير نحو الحب منذ صارت طريقه ثكلي وأصبح العابرون فيها رضعا يتامى يتساقطون دون أيدي تمتد لإنتشالهم.إمتلأ خاطره أفكارا وشعر أنّ في كل نهج يقوده إلى ناريمان ألف متراس جارح.

وصل إلى المنزل، دخل كعادته يبدي فرحا وسرورا.جلس ينتظر تهاطل أسئلة أمه فاذا بها حزينة لا تبدي أيّ إنشراح، بادر ليسألها عن سبب العبوس فقطعته وهي تعلن حزنها بدموع حارة.

سارع في الجلوس أمامها ممسكا بيدها ومستجديا نطقها وبعد لحظات إنفجرت بعويل بارد وهي تقول:

– يا ابني إنّ الموت قد فعلها بنا، وتواصل البكاء..

– اللّه أكبر.. من مات؟؟

– إنه ياسين إبن خالتك يمينة، قتلوه بتهمة أنه جزائري..

– آآه ياسين الذي كان يعمل في ليبيا، رحمة اللّه عليه، هل أخبروك شيئا عن ظروف موته ربما هناك مغالطة.

– لا ياولدي قد إتصل صديقه البارحة وأعلم خالتك أنه قد توفى وأن إغتياله جاء من طرف ميليشيا تابعة للنظام ماكانت لتميز بين الأفراد في إحقاق الموت لولا أن صاح أحدهم حقدا بأن ياسين جزائري ضد النظام فأشبعوه موتا بتهمة أنه غريب لا أكثر.

– لاتحزني يا أماه فإن الموت أصبح يهرول نحو الطيبين حافيا وكأنّه يشعر بأنهم فقدوا الحياة ورغبتها في هذا الزمن المر.

كم تكاثرت هاته المجموعات المسلحة التي يقودها أفراد يملكون توجهات فكرية وسياسية مختلفة ويشتركون في ميزة إمتلاك السلاح وإستخدامه متى لا قوا إعتراضا يحول دون تطبيق إيديولوجياتهم.

نحن البشرعدائيين، نملك الموت بين أفكارنا ولولا القانون والخوف من العقاب لكانت التصفيات تتكرر يوميا بشكل فظيع وكل الدليل في هاته الأحداث التي صارت موضة للقتل والتنكيل باسم الربيع وأيُّ ربيع هذا الذي جلب كل أنواع السواد والظلم على أفراد لم يحلموا إلا بالسلام في إطار ديمقراطي يحقق التوازن الفكري والاجتماعي.

راح يسأل أمّه عن جنازته وتاريخ وصول جثته لكنها أجابته بأنّ صديقه الذي رآه يسقط قتيلا، عاد حينما حلَّ الهدوء وسكنت أصوات الرصاص باحثا عن جثَّته فلم يجد لها أثرا. المجرمون يأخذون القتلى معهم لينكلوا بهم ويجعلوهم عبرة لمن يحاول مخالفة جهلهم.

تأسّف كثيرا وخرج دون أن يتناول شيئا يسدّ رمقه، شهيته قطعتها أخبار الموت ودموع أمه.إتجه إلى المقهى منتظرا عبد القدوس، وصل قبل موعدهما الذي حدده، طلب له قهوة مركزة كالعادة لعلها تخفف عنه مشقة ترتيب أفكاره.وصل عبد القدوس مرحا يبدي إبتسامة جميلة، رحّب به ودعا النادل ليجلب له شيئا يريحه من الطريق الذي قطعه ويوقف إشتداد شهيقه وزفيره.

سأله ساخرا:

هل أتيت جريا أم إحدى حسناوات الإقامة الجامعية قامت بمطاردتك فهربت؟

– منذ متى عبد القدوس تطارده الجميلات، إنّك تهذي... ويطلق ضحكة عالية.

– اذن ماسر سعادتك؟؟ قد شعرت بها منذ كلّمتك في الهاتف..

هيا يا عبد القدوس تكلم ومن دون مقدمات.

– أولا أبي سيذهب إلى الحج بعد حصوله على جواز سفر مخصص لذلك وثانيا..

– آه مبارك.. فعلا خبر سار.

– أما الشئ الآخر فهو أني....

– هيا تكلم..

– قد عثرت على المرأة التي أريد.

– حقـــا؟؟

– نعم عثرت عليها وربما هيَّ من عثر عليّ فتلك المصادفة التي جمعتنا ماكانت لتكون لولا أنّ إبتسامتها شقت بيننا طريقا محفوفا بالورود والإعجاب.

– هل أحببتها؟ أنا لا أحب النّكد، لكن ألا تخشى غدرها وأنت تعشقها بكل هذا السرور؟

– لا يا صديقي هي أكثر من امرأة وقد وقعت وسأكرر توقيع كل عقود الحب أمام عينيها، فالوقوع تحت ظلال شفاهها لا يمنحني حق المساومة.

إبتسم لكلام عبد القدوس وهو يقول سرا: يا للجنون هل أصبح إعلان الحب موضة يتفاخر بها العشاق، كم عودونا على التفاخر بالألم والتباهي بجمال الكبرياء في آن واحد، فحتى في الغدر طعم لا يدركه إلاّ من بتر قلبه دون تخدير.

سأله عبد القدوس عن سبب العبوس والملل.خشي أن يتهمه بالامبالاة وعدم مشاركته الفرحة، فاخذ يسرد عليه تفاصيل وفاة إبن خالته ياسين مع أنّه تردد في بادئ الأمر.

تأسف عبد القدوس كثيرا فهو أيضا يعرف ياسين، وطيبته وخصاله الحميدة وراح يحاول التخفيف عنه بتبسيط الموت وجعله حدثا عابرا لا يستحق أيّ حزن بذريعة أنّ الإنسانية تعوّدت موت الأخيار وتعمير الأشرار وراح يقول:

الموت أصبح اليوم لا يحزننا حينما يختار خيرة من فينا ليحملهم على غفلة بجناحيه إلى موطن لا رجعة منه فمابين موت الأجساد وموت الأحلام صرنا نتشابه فنحن نموت كل يوم بأحلامنا آلاف المرات، هي تقتلنا بلا شفقة وكأننا ولدنا لنموت لا لنحلم.

- صدقت يا عبد القدوس..

- أتعلم أنّ الماضي الجميل الذي عشته قد مات مع أمي التي هجرتنا إلى القيامة ولم تترك لنا فرصة كي نقبلها أو نقول لها وداعا، لا يزال ذلك الصباح الكئيب عالقا بذهني يوم إنتظرت أن توقظني فلم تفعل وحين ذهبت أوقظها لم تستيقظ ليعلن جسدها البارد الذي سكنت دقات القلب فيه أنّها لن تفتح عينيها ولن تعود.

– تأسّف لعبد القدوس وترحّم على أمه وشعر بندم لأنه عطّل فرحة الحب التي كان يشعر بها بالحديث عن الموت، كاد يواسيه لولا أنّه قطع كلامه وهو يقول:

– فعلا لم أعد أذكر شيئا فقط أتذكر أني متّ قبل اليوم ولاتزال عودتي إلى الحياة معلقة إلى أجل غّير مسمى.

– تفاءل يا عبد القدوس واترك الأحزان في الله يعوضك بخير كثير.

– وكأنه أراد الفرار من حزن ذكرى أمه الذي داهمه فجأة، عاد يسأله عن وفاة ياسين وملابسات وظروف قتله.

– لابد وأنّهم مارسوا همجيتهم في القتل، كل فنونه يتقنونها ويجيدون تطبيقها.

– والله يا عبد القدوس لم تصلنا تفاصيل دقيقة، جثته لم تعد موجودة، فخبر موته جاء من صديقه الذي رآه يسقط أمامه لكن لم يجده بعد ذلك، ربما سيخفونها تسترا عن جرائمهم ومحوا للدليل وربما سيجعلون منها عبرة لمن يقف ضد آلة الموت التي يستخدمونها في تحقيق مبتغياتهم.

– ذكّرتني بـ«مارينا ابراموفيك» التي قامت بتجربة صعبة سنة 1974. لم يكن لها هدف سوى أن تثبت أنّ جميع البشر مهما إختلفت أوصافهم قادرون على إرتكاب أفعال شنيعة إن توفرت لهم الفرصة، وقد نجحت في إثبات هذه الهمجيّة والنزعة الشريرة بعد أن أتاحت للجماهير أن يفعلوا بها مايشاؤون وهي واقفة مدة ستة ساعات متواصلة بدون حركة كما وضعت أمامها طاولة عليها سكين ومسدس وأزهار مشوكة.

لم يجرؤ أحد على الإقتراب منها خلال بداية هذه التجربة إلاّ أنّهم حينما تأكدوا أنها لن تقوم بأيّة ردة فعل إتجاه أيّ تصرف يصدر منهم، تركوا السلمية فقاموا بتمزيق ملابسها ونكزها بأشواك الأزهار وتحرّش بعضهم بها وحين إنتهى الوقت الذي خصصته مارينا لهاته التجربة وتحرّكت من مكانها همّت تلك الجماهير بالفرار.

-فعلا نجحت في إثبات أنّ الإنسان قد يكون عدوا لأخيه في أيّ زمن وفي أيّة فرصة فالضعف الموجود في بواطنه يخلق دوما رغبة في التنافس على الكمال الذي لا يتحقق فيصبح الإنسان حقودا على غيره لا لسبب سوى أنّه تفوق عليه في مكاسب مصيرها الزوال طال الأمد أم قصر.

إفترقا على حزن. بعد أن هدأ فرح الحب في عبد القدوس، لم يتعمّد كلاهما الوقوع في براثين الشجن لولا أنَّه فرض نفسه وحضر بينهما..

مرّت تلك الليلة حزينة، باردة، خالية من كل ترف روحي، فلا حزن عميق ولا فرح راقي ولا نوم هنئ، فالجو صارمرهقا لا يحقق أية سعادة ولا يجلب أيّ إبتسامة.

كم صعبة أنت أيّتها الحياة وكم قاسية؟؟

لن نحب مادام الحِمام يطير بحبنا إلى كل أفق قصي، آه يا هيام لو كنت أمامي لحدّثتك عن نسياني لنفسي أمام عينيك السوداوين، ففي ذلك المساء الذي حدقت بي فعلا تراخت عضلاتي وأحسست

بألم الفؤاد، احلتني على فراش بارد كي أمارس البكاء الجاف على الحظ الهارب.

أريد أن أقضي ليلة هادئة احتضن الوسادة التي لم تضمني يوما، فهلا كنت يا هيام حلما؟ لما ماتوغلت بين يديّ وصدري المزهر بك؟ ولم تركت بلاطي كأنني مااشتهيتك ذات مساء أوَلم تشتهي وقوف قلبي في ذياك الصباح المطير؟

لم أكن عاشقا قبلك ولن أصبح متيَّما بعدك، كل الجفاف الداخلي جعل من الفؤاد خرابا لتجتمع كل الآهات فيه فأصبحت الروح مجمعا للدموع.

فعلا عسير حبك، لاأملك ضدّهُ أيَّ دليل كي أدينه أو أقتله فيَّ، فصوتك لوحده يأخذني إلى غبار الأحلام التي ملأت عيناي ومانلت من أحلامي إلاّ الصمت والصقيع.

سأعلن إذا أمام السماء وسأسمع كل الجبال وسأترك العصافير تنصت وربما أجعل تلك الدوحة التي لا تتذكَّر غارسيها تبكي وأنا أعلن بكامل صوتي «أحبّك» فياأشلائي إجتمعي مجددا واقذفي بي في بحرها فماعاد شيء يخيف منذ رميت قلبي إلى مابعد التاريخ وقررت أن أتبنّى قلبك وأعلن أنّه التاريخ، فلم يعد الحاضر الكئيب كافيا لأن يوفر أسباب العيش وإذن لننفجر.

كلها خواطر جالت بقلبه وعاثت فيه تمنيا وأحلاما إلى أن حمله النعاس على كفّه وسار به إلى نوم عميق أزال الكثير من إحتقان الأحاسيس بعد أن سرح في خيال مبهم.

توجّه إلى الجامعة وهو مليء بالحب الذي أغرقه منذ النظرة الأولى، هيام إلهة الجمال وربّة الأناقة، كل الجوارح تهتف باسمك يا عشتروت، يارمز الأنوثة في زمن الاندثار.

توجّه إلى المدرج 01، وجد الطلبة في فوضى وحالة من الضجيج بسبب إضراب الأساتذة، تعجّب وهو يقول: إيييه أعلى الرواتب في كل القطاعات ويضربون أيضا.

ردّ عليه زميل له:

- ربما المسألة تخرج عن إطار المال، ربما مشاكل إدارية أو غيرها.

- لم نعتد أيّة مشاكل خارج البحث عن المال، والذي أصبح محركا لكل النزاعات التي تصدر من المتعلمين وغير المتعلمين.

- والله غريب...

رنّ هاتفه، ظنَّ أنَّ عبد القدوس أو أمه التي لا تفرق بين أوقاته، إلاّ أنَّه تفاجئ حين دقق في شاشة الهاتف وهو يرى ناريمان بكل الألوان، تردّد في الرد وكأنّه خشي ماوراء إتصالها فهي لم تتصل به منذ أيام طويلة.

- أهلا ناريمان، كيف حالك؟

- بخير، الحمد لله، أين أنت؟

- أمام المدرج رقم واحد، أظن أنّ الدراسة ستتوقف لثلاثة أيام فالأساتذة مضربون.

- حقا؟؟ إنتظرني هناك سوف أصل بعد ربع ساعة على أكبر تقدير.

- حسنا أنتظرك.

مرَّ الوقت على عجل وهاهي كلبؤة تختال بأجمل الثياب قادمة بنظراتها الثاقبة، وصلت وابتسامتها قد سبقتها بضع خطوات وعطرها الشهي ملأ أحاسيسه رغبة.دعته إلى الجلوس تحت الأشجار التي ثقلت بالعصافير الشديّة.كان الجو مميزا بعذب الألوان والأشكال، كان ينظر إلى ناريمان باستمرار، أحسّ أنّ أحمر شفاهها أخلّ بالهدوء وحرّك نيرانا خامدة منذ زمن بعيد.كأنّ يدا خفية تلعب بأفكاره وتحرضه على خيار من اثنين. أن يبتلع تلك الرغبة أو يبتلع شفاهها والثاني من الخيارين كان أقوى.

لم ولن يخفى عن امرأة شعور رجل يجالسها بحريق داخلي ظهر دخانه على عينيه الذابلتين، نظرت إلى مابعد الأشجار فلم تجد شيئا يثير الحياء، فلا ثالث بينهما.

ضغطت على يده بنحو يجذبه اليها، هو جديد لا يعرف الكثير عن هذا النوع من الإقتحام.كاد يضحك حين تذكر شعر نزار قباني:

ياطفلة الشفتين لا تتهوري..

طبع الزوابع فيه بعض طباعي..

لم يضحك من جنون نزار لأنّ الزوبعة لم تمنح له الوقت كي يفتح فمه أو يهرب بشفتيه. ناريمان تقطعهما دون رحمة بعد أن إبتلا بعذب ماء شفاهها الممزوج بنكهة الفراولة الشهية، إستمر الموقف بتقطع لإستعادة الأنفاس والذوبان بشكل أكبر في كل لمسة.

إذن قد تمّ إعلان الحب من جديد وتم إبهار الحواس كذلك، آه يا ناريمان، ويح الحب فيك وويحي أنا حينما جننت وسايرتك، بل قبّلتك؟؟

عجيب أمر زحام النهد بين أوراقي وكيف للمفاجأة أن تجعلك القصيد وتجعلني بعض الكلام، أيُّ رعشة جعلتني أهتز، وجعلت أحاسيسي تنفجر أمام نهدان صامتان، سبقتني إذا يا شاعري و صدقت. فماذا لو كان هذا الموت على فراش هيام؟

عذرا يا ناريمان قد خنتك ولن أبوح لك بما في القلب حتى لا تشعري بخيبتين خيانتي وخيانة حظك. كان مشدوها وكل الأفكار تتراكم وتتزاحم حوله.يخشى التورط مع ناريمان فهو تضييع لهيام. هيام الحب السريّ الذي إن تحدّث به لأحد سيسخر منه لا محال أو يتّهمه بالجنون فهى أستاذته الجميلة، الصامتة التي تتقن لغة الأعين، ذلك الدرس الذى شرحته لا يزال عالقا في ذهنه، ربما خلّصه من ثقل الحفظ والنسيان حتى ان كلامها المنسق إضافة للجامعة وللتدريس فلا هيّ ثرثارة ولا هي شحيحة، كل ماتنطق به محبب ومرغوب، إبتسامتها إثر كل سؤال يوجه لها كافية لتكون إجابة مكتملة لما تتركه من إقتناع في القلب.

كان يتذمر من جفاف مواد القانون التى لم تمنحه المتعة الحقّة للتعلم على يديها كم تمناها أستاذة للأدب تدرِّسه عصور الشعر وأصول الرواية كي يُلقي أمامها أبيات عبد العزيز جويدة مثالا وطلبا واستشهادا.

علميني الحب يا أستاذتي

إنني في الحب غض

لست أدري كل ما في الحب نطقا أو كتابة

إنني في الحب أمي

وعندي كل شيء يتشابه

كل حرف

رسمه عندى على شكل قمر

أو على شكل سحابة

حاولي أن تخرجيني

من أساطير الرتابة

إننى المملوء من قيس

وليلى.

إذن يا شاعرنا كلّنا بحاجة للتعلم ولست وحدك من تعاني الأميّة كلنا نحتاج لأن نقرأ ونكتب لأننا كثيروا التلعثم وكل العبارات التي ننطقها ركيكة لا جدوى إذن من البقاء على قيد السكوت فالجهل آفة الأوّلين والرضا به أعتى من ظلم الظالمين. لن أواصل الإنفجار في وجه الأوراق فقد بتُّ أشعر أنّها تبكي، آه من هذا السؤال الذى يُرعبني، هل كل الشعر الذى كتبته قبل تعلقي بعينيها ركيك أم هو نثر رديء لا يصلح لشيء وهل بعد تعلقي بها سأكتب شعرا جيّدا؟

حلمت في يقظتي أن تدرسني عصور الشعر فإذا بي أكتشف أن شعري عصرين عصر ماقبل عينيها وعصر مابعدهما. أي امرأة أنت.. اللّعنة..

هيام أستاذة مؤقتة إذن لن تشارك في الإضراب بموجب القانون وحصتها بعد ساعة، إهتز وهو يتذكر ذلك بعد أن غرق في مناسك الحب ومناسك التفجع على الورود التي يزرعها بأحداقها ويسقيها دون أن تنتبه لهذا البستاني الأشعث الذي غرق في وحل فؤاده المزروع خلف قدها المدجج.

هاقد حان الوقت، وداعا يا ناريمان، قُبلتك لم تفلح في تحنيط تعلقي بالأخرى، من؟ هيام التي بدّلت القوانين ورفعت التعصب وسكبت المياه على القلب الجاف، هي لم تقل بعد كلاما جميلا فلو قالت ربما ستجعل داخلي شلالا وقلبي المهجور ينبوعا للحنان.

لم أعد أتقن السير في هذا المضمار الضيق ولا أملك أيّ مؤشر يدلني على النبع، أريد أن أرتاح من هذا الطريق الغير معبد وأشرب من كلماتي ورسائل عيناي الناضحة، لست جنّتك ولست كذلك جهنمي، فأنت بعض إحتراقي الليلي وكثير الزمهرير على توهج خلايا حبك فيّ.

ليس الحب في أن أغتال بوحدتي وليست الوحدة عربونا للطمأنينة عن حب يصارع الخروج إلى واقع هش لن يمنحه سوى ميتة دورية.

مازال الشق الأيمن من الفؤاد متوهجا باسمك ولا يزال الأيسر يبكي بعدك فهلا إنطفأ الحريق واشتعل إسمك حصرا ومات الألم الجميل.

رباااه أي جنون هذا الذي يقيم خيامه على مخيّلتي كي يجعلها منتزها عنوانه أنت.فأين أنا فيك وأين أنت فيَّ؟؟ أووف.

لو حدّدتِ جغرافيا تفشيك في جسدي لربما بترت عضوا أو اثنين واقتلعتك من حواسي علّني أشفى من شعوري باليتم أمامك، ستقولين لي بكل برودة «أنت مهبول» لو صارحتك. سأجف بكل حرارة وأنت تطردين مشاعري وتتركينها تبيت خارجي وخارجك وأنا أموت بمئات الطعنات.

لن يستوي أن أبتعد هكذا صامتا فليس حبي لقيطا ليرمى، كل الشرعية له وليس هناك أيّ مذنب فيه فقد جاء من أرض بتول وسال نقيا، حافيا إليك وعليك، فهل أفجر مشاعري أمامك وأمام العلن؟ لا لن أفعلها ففيها شظايا خطيرة قد تلمسك فتذيب مافيك ولو كان صخرا.

ماعدت أتفاءل كثيرا مذ سقط ألوف الفرسان عن أحصنتهم وتحوّل الحب إلى طاولة شطرنج مهددة بالإنقلاب، لكن أيضا لا بد من سلام أجلس على ركبتيه وأقبله كي أرتاح من هذا الخوف القاتل وأحب دون مضض وأصلح مافعله الدهر وماخلف من رميم. إذن سأتكلم.

علّق حواره الداخلي وجلس آخر الحجرة.تناول ورقة وقلما وبقي ينتظر وصول القديسة، إندفع الجميع ليدخل.إذن قد وصلتْ كما وصلتُ، لافرق فقط يتناسون أني القادم من أرض التيه إلى التيه وهي القادمة من العدم الذي تحمله وقد تمنحني إياه في لحظة تجاهل.

ألقت تحيّة شاملة، جلست مبتسمة وهي تدقق في وجوه الطلبة وكأنّها ترغب في حفظ ملامحهم أو إسترجاع البعض منها.حينما وقعت عيناها على محياه أضافت ثواني أخرى وحابته بنظرة مميزة قريبة إلى الإبتسامة، ربّما تذكرته وربما لفت نظرها بأمواج عشقه التي يبعث بها جيوشا، لم يعد يدري شيئا سوى أنّه أمام هيام. لا يهتم، من تكون أو كيف ستكون، هيام وإنتهى.

الباب يُطرق.ولج أحد الأعوان الإداريين وهو يحمل أوراقا.منحها إحدى الأوراق وطلب منها إيداعها لاحقا في مكتب رئيس القسم، شكرته وبعد مغادرته دققت في الورقة وطلبت من جميع الطلبة الانتباه إلى ماستقوله.

- الورقة تمثل إختيار الطلبة لممثلهم ونائبه فاختاروا من ترونه جديرا بهاته المهمة واذا لم تتفقوا فلكم أن يترشح إثنان أو ثلاثة ونجري تصويتا.

تضحك فتزداد جمالا ويزداد ذوبانا وانبهارا..

نظر جميع الطلبة إليه فهو الممثل السابق والأجدر بالمواصلة في هاته المهمة، صمت وكأنّه لا يحس بالنظرات التي تحطيه إلى أن قطع الصمت زميل له وهو يشيد به. إبتسم بعد أن تعالت أصوات التزكية.

نطقت الأستاذة وهي تقول:

- الكل موافق على هذا الاقتراح؟ الذي يوافق يرفع يده.

رفع الجميع، ماعدا واحدا أو اثنين لم تكترث لأحد منهم.تقدّمت منه وهي تحمل تلك الورقة، في كل خطوة منها يتسارع خفقان قلبه

أكثر وكلما أصبحت أقرب، هزّ حواسه ومشاعره عطرها الذي طغى على كل العطور.

طلبت منه تدوين إسمه ورقم هاتفه وكل ماهو موجود في الإستمارة، ضيّع الخط وهي تنظر إليه من علّ وضاع هو حينما لامست يدها كتفه.

مرّت تلك الحصة هادئة تماما، عانى الافراط في التركيز إلى غاية نهايتها، أحسَّ بفشل ورأى أنّ أحلامه تتصاعد بخارا، لم يعد له مايتشبث به بعد أن وجد جدارا يحجز على مشاعره ويقيدها فمهما يكن لن تكون له معها فرصة ولو عابرة فالعلاقات الأكاديمية لها أبعاد كثيره بما تحمله من مجاملات ومحبة مفترضة لا تخضع لقواعد الممارسة الواقعية.

لم تبق له أيّة رغبة في مواصلة الدراسة أو البقاء في حرم الجامعة، إحباط عنيف تسلّل اليه كاد يقطع تلك العاطفة التي قوضت أركان كبريائه والتي إتّخذ لأجلها ملايين القرارات ورجع عنها في حب لم يتخذ ايّ خطوة تلمس من أجله.

عجّل بالخروج متوسلا خطاه أن تخلّصه من تواجده بهذا المحيط الذي لم يوفر له حاجيات قلبه من النوروالشوق.نصف ساعة من السير، وصل إلى البيت فلم يجد شيئا يدل على الحيوية أو الفرح فالصمت مطبق تماما ولا شيء يدل على شيء سوى السكون العميق. بعد حمام دافئ، وضع فنجان قهوة ساخن على حافة الأريكة موجّها له بعض الكلام:

أيا فنجانا صامتا، ماذا أفعل، كيف أفعل، ولما أفعل؟؟

وكأنّه ينتظر ردا وهو يغرز عينيه في الفقاعات المتمركزة وسط الفنجان.إرتشف منه قليلا وهو يقول: القهوة لا تُشرب على عجل، القهوة شقيقة الروح تشرب على مهل.آه يا محمود كم كنت شاعريا، حمل كتاب «ذاكرة للنسيان» الذي قال عنه محمود درويش أنه أفضل ماكَتب، قرأ صفحات وعاد ليتذكر بأنّه وحيد في البيت، وحيد آه ولم؟

إتّصل بأمه التي لم يتوقع ردها تماما، فالتكنولوجيا هي آخر همها فعالم الهواتف المحمولة الذي أقحموها فيه لم يكن يرضيها لذا بقيّ غامضا يعاني الإهمال.ردّت فضحك تعجبا من هذا الرد غير المنتظر.

- وينكم يا ما، علاه تروحوا بلا متقولولي ولوكان ماشي المفتاح في جيبي نبقى برا[1]

- ماعليه يا وليدي، فيبالي مزال ماتجي وبنت خالتك ولدت اليوم وجابت طفل شباب سماتوا سليم[2]

- سليم؟ آآه مبروك، المهم مطولوش بزاف[3] سلام..

تعجَّب، إذن قد فعلتها يا إلهام، أيّ عهرٍ قادرة أنت عليه، واصل يتمتم، سليم.. سليم..

1- أين أنتم باأمي لماذا تغادرون البيت دون اخباري، لولم اكن حاملا للمفتاح لبقيت خارج البيت.

2- اعتقدت انك لن تات كما ان ابنة خالتك ولدت وكان ذكرا وسيما سمته سليم.

3- لا تتأخروا كثيرا.

فعَلتها لتجعل ذلك الحب القبيح تاريخًا وذكرى، قد يقول قارئ عن أيّ حب قبيح تتحدث؟ وهل إمتاز الحب بالقبح يوماَ؟ نعم هو قبيح قبح سليم الرجل لا الرضيع البرئ الذي لا ذنب له، ربما الحب أعمى كما يقال لكن هذا القول عاجز عن تقديم شيء مهم فمالتفسير اذن؟

كل تلك الوحشية والدونية لم يقنعاها بأن حياتها العاطفية معه نكتة موجعة لا تمثل الحب في شيء وأنّ قصتها معه جعلت كلمة الحب ركيكة ومعطوبة فطالما نكّل بحبها جهارا نهارا وكأنّه عدو وكم خرّب جسدها بقذارته اللامحدودة حتى أصبح إسمها عنوانا للقبح والمهانة.لم تغفر لها الذاكرة الجماعية شيئا لكنّ الرحمة غفرت لها يوم أهدتها زوجا حُرّم عليه سماع شرورها فقط لأنه بعيد عن أرض هاته الشرور المقدسة التي تم الترخيص بها باسم الحب، ماأسوأ أن يشوه ذلك البرئ وكم هو تعيس ببكمه وجهله.

يا إبنة الخالة ليتك تسمعين مايقوله جوفي، وليتك تعرفين ماضيّ هذا الجوف الهش، لتعيريني ليال طوال، لكن لن يعود الماضي إلى ماضيه مادام اللون الأسود لا يزال مرتبطا به كعلاقة الماء والبحر، أدرك أنّ القلب الأخرق يمازح دموع البؤس، أنا أيضا حدث معي الكثير ومن العمى كان نصيبي وفيرا، كنت دوما أتساءل، لمَ أمطار النسيان تهطل في ليالي حبنا الصيفية، كنت ألعن مجنونتي وأسألها عن بكاء الشمس في آهاتي الحارقة وجمود الندى في الضحى المشمس.

قد سألتها ذات يوم عن العاطفة وشؤونها فكان جوابها بائسا، لم تخبرني عن أحاديث العشاق، لم تكذُبهم ولم تصدق أكاذيبهم

فقط كانت تنظر اليّ بعجب التكذيب وبراءة التصديق، وحين أعلنت عليها الحب ردت بكل ثقة وسخرية:

– تحبني؟ هل أصدقك؟ أيّ هبل تريد مني قبوله، ليت هاته الكذبة كانت أقل حجما فربما إستطعت إبتلاعها لأجل طيبتك، أيها الطيب حد السخرية.

ربما كنت طيبا لكن لم أعرف عن السخرية شيئا منذ إصطدمت بها، لا أدري مالذي حدث بعد ذلك، فكل ما في الأمر أنني قد زدت تعلقا بها وزدت وجعا بحبها إلى أن توقف وجعي إلى الأبد في لحظة النسيان التاريخية.

وجعي بحبي وصل أوجه، لم يكن ألم الخيانة ولم يكن ألم الغدر، بل ألم الحب، فحين أحببتها كان تصور خسارتها يشتتني كفكرة، فكرة تراودني في السهاد، لاشئ يوحي بالخسارة، إذن لا سبب للحزن ومن أجل ذلك عانيت وجعا مزمنا وخللا فادحا على مستوى ليلي الطويل، وحين تحققت الخسارة التي كانت فكرة مجردة، أعلنت وفاة الحس وأدركت أن حواسي الداخلية لم تكن تمزح وأن الحب أصبح رمادا أو هشيما.

لم أذكر هذا الكلام وماذكرته بعد، لكنه نقاش جاد بيني وبين ذاكرتي، ليتك تعلمين ياإبنة الخالة أنّ مولودك المسمى على ذلك الحبيب لم يكن فادحا مثلما سميّت أنا عمري بامرأة وإرتكبت من الفداحة مالايغتفر.قد زوجوها كما إدّعت وأعتقد أنّها هي من تزوجت بعدما رغبت بذلك الثراء.لم يكن رجلا ذلك الذي تزوجته بقدر

ماكان ثريا فهو لم يقتنع بكل ماقيل له عن حبي لها وربما حبها لي وكل ماقيل كان كلام عابرين فهي لم تقل شيئا واكتفت باتهام القدر.

سقطتُ في وهاد الخيانة وفَتحت أبواب الوجع على مصرعيها في وجهي، كنت أتألم وأرتكب جريمة البكاء الحار في حق رجولتي وبلا جدوى.لن أسامحها في أيّ يوم ولو تعددت مناسبات الغفران.

إغفري لي يا شريكتي في الحب والخسران، يا ابنة الخالة ما قلته فكلنا في البحر ماء، وليسامحني الله لأنه أعطاني حبا مغشوشا.

نام على أريكة الحوار، كان نوما خفيفا قطعه رنين الهاتف المتواصل.رد بصوت متقطع..

- ألو السلام عليكم..

- وعليك السلام ورضوان الله، مرحبا.

- أظنك أنت ممثل الفوج الثاني من المجموعة أ؟

- آه نعـــم.

- أنا الأستاذة محب الدين هيام، من فضلك يجب أن تخبر زملاءك أنّ حصة الأسبوع القادم ستعوض يوم الاثنين بدل الثلاثاء، أرجوا أن تبلغهم.... ألو، ألو،، أللووو هل تسمعني؟؟

- عذرا سأبلغهم بإذن الله،، شكرا.

- شكـرا. ســلام.

- ســـلام.

اللّعنة يُطاردني الحلم في الواقع، ويبحث عني حتى يجدني، ويفعل فعلته، هذا مالم أفكّر فيه تماما، كيف يصل بركانها إلى عقر

داري ويذيب تعنتي الأخير، هل شعرت بغضبي وخروجي فأرادت أن تخلط سكوني الذي قررّت بناءه؟

يرن الهاتف من جديد، هي آه نعم رقمها متوهج في الشاشة وكأنّه مصباح الزيّت في أول إشتعاله

- ألوو نعم أ.. أستاذة.

- عذرا إن أزعجتك، أتمنى أنّك لم تخبر زملاءك لأنّ البرنامج لم يتغير وماقلته لك قبل قليل كان تسرعا مني، آسفة.

- لم أفعل بعد ولا إزعاج في ذلك، يا مرحبا.

- شكرا جزيلا، سلام.

- وعليك السلام.

بدا له الأمرغريبا، كل شيء إختلط ولم تستقر أيّة فكرة، صوت هيام كان نموذجا للأنوثة يعادل الدرجة العاشرة على سلم الإهتزازات العشقية. أيُّ أنثى هي؟

ذلك الصوت المسافر في حقائب الحنين والعائد من زمن الهشاشة لم يكن طبيعيا، كان أكبر من أمواج صوتية ينقلها المحمول وأعظم من أن يسمع لبضع ثواني لا تسمن ولا تغني من جوع فكل الحواس ثارت بعد أن كانت مسالمة، صوت هيام يتدفق كرذاذ المطر الشتوي والنطق الأول شبيه بتفتح الأوركيد، ماأضخم ظلال الغواية في هيام وماأصعب إقتحام الظلال.

هل أتحرّر من كل العبوديات لأقتحمك؟ هذا السؤال العصيّ حفرَ عميقا في الطريق الملتوي بين عقله وقلبه، ما أصعب التساؤلات غير

المقنعة وماأسوأ الإجابات غير الكافية وأجوبة دون مضمون تطرح أسئلة أعمق وأسوأ.

كل الأفكار تهرب نحو حيز الجمود ولا وقت لرسو النسيان ولا مرفأ له، الصمت وحش يهدد السلام العاطفي والكلام في صمت رونق للألم الداخلي ولا شيء سوى الموت بالمجان لقاء كل صمت خاطئ وكلام فارغ.

تسرّبت أبيات إبن حزم الأندلسي إليه كالطوفان فالحب علّة ووصف الشعراء وحديثهم كثيرا ماخفّف تلك الأوجاع، راح يتذكر ذلك الشعر ويلقيه بصمت على خاطره المتعب، الذابل كأوراق الخريف:

وذي علّة أعيا الطبيب علاجها

ستوردني لا شك منهل مصرعي

رضيت بأن أضحى فتيل وداده

كجارع سم في رحيق مشعشع.

صوت عبد القدوس أمام البيت ودقات خفيفة، خجول دوما وإذا لم يسرع إلى الباب يغادر.نهض حافيا مهرولا ليفتح له.

- أهلا بعبد القدوس، مفاجأة فعلا.

- كنت مارا من هنا، أخبرني حدسي أنّك موجود بالبيت، فقلت، أجرب هذا الحدس اللعين.

- أدخل لنتحدث.

- لا لا أنتظرك تغيِّر ملابسك، سنتناول قهوة في مقهى الحرية.

- هيا!!! لا أحد بالبيت كفاك خجلا.

دخل إلى البيت بخطى متباطئة، كمن يكتشفه لأول مرة، عبد القدوس له من الحياء ما يخيفه من كل مدخل جديد، فقد سبق وأن برهن ذلك يوم حاسرته ابنة خالته في بيتهم ورفض الانصياع لرغباتها من شدة خجله، ولم تمنحها جرأتها شيئا بعدما تسبب الخجل والتوتر في عجزه عن أداء الدور البيولوجي الذي لم يرغب به.

قام باعداد القهوة له بينما راح عبد القدوس يتصفح الكتب المتناثرة، غابريال غارسيا ماركيز، كافكا، واسيني الأعرج، فدوى طوقان، كلّها أسماء، لا فرق عند عبد القدوس، فعلاقته مع الأدب والكتاب ضعيفة وربما سيئة.

عاد من المطبخ يحمل فنجانين من القهوة في نفس اللحظة التي انتبه فيها عبد القدوس إلى مذكرة مكتوب فيها بخط اليد، أخذ يقلب الأوراق واحدة واحدة وهو يدقق في بعض ماكتب.

- هل أعجبتك النصوص يا عبدو؟

- عذرا عن تجسسي، هل هذا مخطوط رواية، أم مجرد نص؟

- إنها رواية بحاجة إلى مراجعة وتدقيق.

- إتصل بأحد النقاد لعلّه يفيدك ويجنبك الوقوع في مصيدة النقد اللاذع متأكد أن التنقيح من أحدهم سيكون مفيدا.

- أتفق معك في أن للنقد دور في تحسين الأعمال وتوجيهها وربما حتى تهذيبها لكن ما ذهب إليه «طه حسين» يغريني فعلا، فأنا

ضد النقد الذي يضيّق حدود القلم أو النقد الذي يضع يده على يد الكاتب أثناء رسمه لنصوصه، الكتابة رسم، أيّ تدخل ليد أخرى سيشوه اللوحة.

- إذا كان عميد الأدب العربي قد حرّر الكتابة من هذا فأنت حر.

- نعم يا عبد القدوس وقد أعلن هذا في كتاب المعذبون في الأرض فجاء على لسانه:

لا أعترف بأنّ للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لي القواعد والقوانين مهما تكن، ولا أقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته أن يدخل بيني وبين ما أحب أن أسوق من الحديث وإنّما هو كلام يخطر لي فامليه ثم أذيعه فمن شاء أن يقرأه فليقرأه، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه ومن شاء أن يرضى عنه بعد القراءة فليرض مشكورا ومن شاء أن يسخط عليه بعد القراءة فليسخط مشكورا أيضا.

أنظر إلى قوله تجده مستقرا على حرية البوح، فكلا الطرفين اللذين يشكلان القطب الرئيسي لنجاح الرواية أعتبرهما دارسين للنص لا متحكمين فيه.

آسف إن سببّت لك صداعا فانا واثق من أنّك تخشى أن يطول حديث الأدب ولو إدعيت الاهتمام من أجل إرضائي، هيا أخبرني عن جديدك وكيف تسير أمور دراستك وأين وصلت في الدرب الصعب أنت وحبيبتك؟

-لازلنا نصارع براثين الفراق مع أنّ الحب في أوجه، فالحب القوي دوما معرض للنكبات وأظن أيضا أنّ الفراق المهدد له يزيده قوة

كلما فشل في تحنيطه، أعتقد أيضا أنّ الشرعية أصحبت ضرورة ملحة فهي تطالبني بأن أتقدم لخطبتها وتعتبر ذلك عربونا لصدق المحبة التي تتهمني بإدعائها، فنادرا ماتصدقني حين أقول لها أحبك ونادرا ما تتجاوز الأمر دون أن تطلب مني أن اقسم على ذلك لذا جعلتني أفكر مليا في التقدم لخطبتها.

– لكنك لا تزال بدون عمل ودراستك لم تكتمل بعد ووالدك وهو إبن الريف الذي لا يؤمن إلاّ بما هو تقليدي وأصيل هل سيسهل عليه تقبل إبنة المدينة بطقوسها

– والدي متفهم ورغم كبر سنه إلاّ أنّه رجل مؤمن بالحب ولن يقف حاجزا بيني وبين من أحب كما أنه يثق في إختياري والرزق على ربي يا رجل.

– من أعماق قلبي أتمنى لك السعادة يا صديقي وسنحتفي بك كثيرا، فقط كن حذرا من تداخل حريتك مع عقد الزواج.كثيرا ماجلب البؤس والقيود على من كانوا أحرارا قبل ولوج عالمه، اسعى إلى زواج حر يضيف إلى حياتك جمالا ما واجعل منه وسيلة للسعادة وتحقيق الأهداف الدينية والدنيوية السامية لا غاية تعطل فكرك وتشغلك عن مواصلة حياتك السابقة.

– صدقت، أظن أن شريكتي متفهمة ومثقفة ولن تحول دون مواصلتي للسير على ضفاف الحرية، الذي يحبُّك لا تخشى منه شيئا فكل ماسيقوم به لن يكون إلاّ خدمة لسعادتك.

– هو ذلك، لكن كن حريصا دوما..

دُق جرس الباب، عادت العائلة من زيارة الأهل، إرتبك عبد القدوس فهو يخجل من أم صديقه التي تكن له حبا كبيرا منذ طفولته وتعمقت المحبة أكثر مذ وفاة أمه فأصبحت تعامله بحنان يفوق حنان الأم على أبنائها، فتح الباب، رحب بهم وهو يعاتبهم على التأخر وعدم إخباره بالزيارة، نبّه أمه إلى وجود عبد القدوس بغرفة الضيوف، هرولت نحوه مرحبة ومبدية لفرحها به، نادت على إبنتها الصغرى طالبة منها إحضار كمية من «الطمينة» لعبد القدوس وهي الأكلة التي تعد للنافس لما فيها من سعرات حرارية تعطي للمرأة قوة بعد إرهاق الولادة فهي مزيج من الطحين والعسل والزبدة، أعدتها خصيصا لالهام إلاّ أنّ الكمية كانت وافرة فتركت منها شيئا لأهل البيت للبركة، فكل ماهو تقليدي مبارك حسب الأمهات اللواتي توارثن هاته التقاليد عن الأجداد.

مانع مدعيا الشبع، لكن سيدة الكرم لا تعترف بذلك ولن تصمت إلاّ بعد تناوله مايرضيها مما هو موجود بالبيت وإلاّ غضبت عليه وشككت في حبه لها وهذه عادة المرأة الأصيلة التي تتخذ من الجود والعطاء منبعا للعزة، شكرها على المحبة الجميلة والضيافة الرائعة، ثم قررا الخروج.

سارا نحو الطبيعة الخضراء، يتأملان بداعة الخلق ورحابة ريشة الله التي رسمت كلّ الجمال، على بعد أميال كانت المقبرة مليئة بالصمت تعجُّ بالعصافير التي تنشد الحياة للموتى.

لم يكن داخلها سوى الشيخ السبتي الذي أعطى عمره للموتى وتناسى الأحياء، الصم البكم كما يسميهم هو وربما لو إستطاعوا

الكلام لشكروه عن زرع الكلام في الصمت وتنظيف المحيط الجامد وحضوره الصامت الذي يشبه موتهم.

إنّا لله وإنّا إليهِ رَاجعُون، أنتم السابقون ونحن اللاحقون..

- مالذي أوصلنا يا عبد القدوس إلى هنا ونحن الذين شغلنا بغير هذا المكان لحد النسيان، مافكّرت أبدا في خضم حياتى المضمخة بالأحلام أنّ مكانا كهذه المقبرة يسعني أنا وكلّ الأماني، لا أتذكر العدم إلاّ في ضياع الأحبة وسفرهم إلى النهاية وأتذكره حين تتهاطل الخيبات ولا أجد شيئا يمنحني صبرا على إنشراح الحزن في بواطني.

- الموت حق يا صديقي، ويعطي راحة على حد قول عجائزنا..

- لكن فلسفة الحساب والعقاب أكبر من الراحة المجانية، كل أسئلة الحياة صعبة وضرورة الجواب للسؤال تؤرق فكيف يواجه عبد سؤال الله وبأيّ حكمة سيجيب.

- حضر نفسك لتجيب في يوم السؤال، ولتكن مطمئنا بحب الله لك.

- معك حق عبد القدوس، أن نتفلسف يعني أن نتدرب على الموت حسب أفلاطون لكن الفلسفة في كيمياء الحياة والموت والدين قد تفضي إلى نتائج غير مرضية لإنسان يعيش بوحل الواقع، فلنطبق تلك التعاليم دون فتح لأبواب التناقضات الكبيرة.

صوت بشري قادم من بعيد، صمتا لبرهة..

إنه صوت رضيع يبكي، ربما هناك عائلة تتفقد قبر أحد ذويها، من يزور المقبرة على الخامسة مساء. عجيب.

إستمر ذلك الصوت قادما من خلف الأشجار، هيا يا عبد القدوس نتقدم منه، أمر مريب يحدث، ما كان لرضيع أن يواصل البكاء بهذا العنفوان لوكان أحد والديه إلى جانبه

- هيـــــا..

بضع ثواني وربما دقائق، ليس هناك من يعد الوقت، وجدا نفسيهما أمام رضيع ملفوف في ملابس بالية لا يظهر منها إلاّ رأسه، وقف محدقا بكل أرجاء المكان ينتظر ظهور شخص يعلن أبوته وقرابته لكن لا جدوى فالمكان خالي تماما ولا وجود الا للموتى النائمين.

- ما الذّي أحضره إلى هنا؟ ومن تركه في هذا الجو البارد؟ لا يعلم أحد.

- ما العمل يا عبد القدوس؟

- أقترح أن نبقى أمامه وننتظر ظهور أبيه أو أمه أو من قام بإحضاره إلى هذا المكان.

- غريب. هل تشك في أنّه ولد غير شرعي؟

- ربما قذفته عاهرة هنا وفرت خوفا من الفضيحة.

- لا تقل عاهرة يا عبد القدوس، فهذا وصف غير معترف به، ربما مخطئة.

- ألا تؤمن بوجود العاهرات؟ ربما لم تزر يوما «لاماركيز[1]» أو «الساحل» لتراهنَّ أمامك يرقصن ويمرحن.

- هل زرتها أنت؟ هيا كن صريحا..

1- لاماركيز والساحل: ملاهي شهيرة في الجزائر.

- لم أفعل ولكنني سمعت الكثير عن الملاهي والمواخير وبيوت الدعارة.

- هل تعتقد أن هؤلاء جئن برغبة إلى ذلك العالم الرخيص، ألا تعتقد أنّ القهر والظلم والحرمان سبب قاتل جرّ الكثيرات إلى تلك النهايات البائسة.

- لا يهم السبب مايهم هنّ عاهرات.

- عبد القدوس ربما لا تدرك حساسيتي إتجاه هذا الوصف الشنيع، فلا تكرره، هذا إن كنت تحبني.

صمت الرضيع حينما وضعه في حجره وراح يداعبه تارة ويحدث عبد القدوس تارة أخرى، واصل الحديث أمام ارتفاع حاجب عبد القدوس الذي لم يفهم سر دفاعه عن العاهرات حسب وصفه.

- المشاعر الراقية هي التي تمنعك من أذيّة إنسان مهما كانت أوصافه، فلا تحمل نفسك وزر أحكام وأوصاف لا نفع منها ولا نفع من التفكير بها.

- ماسر هذا الكلام، أظنك قد أحببت إحداهن من قبل وهذا ما يبرر دفاعك.

- لا لكنى أحب كل إنسان ومؤمن بأنّ الخطأ وليد المصادفة وربما الجهالة، وليس وليد التكرار، فلا أتصور امرأة إرتكبت خطيئة وذاقت علقمها المر ستعيد تكرار السير في الظروف الحالكة التي أوقعتها في تلك المصيدة.

أعرف جيدا «بهيّة» المرأة التي لو التقيتها أنت يا عبد القدوس لأطلقت عليها ذلك الوصف المشين، لكنك لا تعرف شيئا عن بداية

نهايتها ولا تعرف أيضا أيّ معلومة عن باعث موتها الذي دفع بها إلى مرمدة تسمى العهر، لكني إلتقيت بها وعرفت مالايعرفه جمهورها الغفير من المسؤولين والساسة.

- بهية؟ لأول مرة تذكر هذا الاسم أمامي.

- يقولون بأنها مومس أما أنا فاقول بأنها أهم شريفة. لم تكرم جسدها لكن النخوة فيها والأحاسيس الجميلة كانت هي الكرم.

- يا صديقي لا أفهم شيئا في مفارقاتك، أوضح؟

- بهية الطفلة، كانت رائعة، النجيبة التي تعيش عمر الزهور بكل برائتها إلى أن قطع أقرب حُماتها حبل المستقبل في وجهها وسحب الإبتسامة من بين شفاهها يوم إستغل سذاجتها وحبها له واقتلع جدار عفتها ولا صراخ ولا نواح أفادها بل زاد على ذلك أن هدّدها بالموت لو فتحت فمها ومن كان؟ من هو؟ ليس إلاّ عمها الذي إتخذته والدا لها في غياب والدها المهاجر إلى لقمة العيش، فمن العاهر ومن العاهرة اليست الصفتان فيه.بعد عشر سنوات من الصمت بدأ الخُطاب يتهاطلون، لكن بأيّ كذبة ستردهم أمام والدها الشيخ العنيد.

لاكذبة أمام وجه الفضيحة ولا فرار من الزواج إلاّ بالفرار من البيت، أيام وأيام، أصدقاء، أحبة، كل الضيافات نفذت، إذن الشارع هو المستضيف، بجسد طري ومغري يستوقف أصحاب السيارات الفارهة، ثم النهاية ماهي؟ راقصة في أشهر الملاهي وكلما تهالك جسدها غيّرت الملهى إلى آخر أقل شهرة وستنتهي في الشارع مقتولة أو محروقة أو متسولة بلا شك.

- ما أرخص أولئك المجرمين يا صديقي، أهتز حينما أسمع شيئا من المسكوت عنه أو مايصنف طابوها، لا أدري كم من الضحايا يمتن بداء الجنس الحقير وكم من لذة مبتذلة ترتكب حماقة وسفها في صمت الظلام وموت الضمير. لن أغيِّر قناعتي لكني لن أجهر بها مادامت لا تتوافق مع الذوق العام للمثقفين، أشهد لك بثقافتك العالية وإنسانيتك الجميلة لكن حيّز الشك في المفاهيم لا يُغلق.

- حسنا يا عبد القدوس، وهذا الرضيع الذي لم يظهر محضرُه منذ ساعة، مالذي سنفعله لأجله، تركه هنا مستحيل.

- أعتقد أن الاتصال بالأمن ضرورة، لكن ذلك سيجعلنا في ورطة حقيقة وربما سيطول التحقيق معنا لحد يثير حيرة الأهل فنصبح في س و ج.

- لا مفرّ يا عبد القدوس وإن تحتم الأمر نأخذه الي بيتنا ونقوم بالإجراءات اللازمة فالظلام يوشك على الوقوع والجو بارد.

- أتريد أن يطردك أبوك ويتهمك بجلب اللعنة والشر إلى البيت؟

- لن يهتم فدور إسرائيل فيما يسمى الربيع العربي لا يزال همه الوحيد، أما أمي فهي حنون وستتفهم الأمر.

- لا لن نغامر، هل لديك رصيد في الهاتف؟

- نعم، بمن تود الإتصال؟

- فرقة الدرك الوطني، دوِّن الرقم.

- كـــــم؟

- 035.79.05.61، ناولني الهاتف سوف أشرح لهم.

إتصل بالدرك، شرح لهم عبد القدوس كل تفاصيل العثور على الرضيع وحدّد لهم المكان بدقة، بعد حوالي نصف ساعة وصلت سيارات النيسان[1] ونزلوا منها بكل الفضول فالمنطقة لم تشهد سابقة من هذا النوع، توزع أفراد الدرك في المنطقة بحثا عن أيّ شيء يقود إلى إكتشاف سر الرضيع المرمي دون جدوى، سجَّلَ رَئِيسَ الفرقة أقوالهما ومعلوماتهما الشخصية وأعطى الرضيع الذي لم يتوقف عن البكاء إلى أحد الأعوان وطلب منه وضعه في السيارة والإنتباه إليه إلى غاية العودة إلى المفرزة.

شكرهما على إحساسهما بالمسؤولية وغادر بعد أن حاول اقناعهما بالعودة معهم إلى التجمع السكاني، فالمكان كان بعيدا والظلام أرخى ستائره إلاّ أنّهما فضلا العودة مشيا على الأقدام.

بعد أيام من التحقيق، شاع الأمر بين السكان وأصبح المعتاد في المدن الكبرى قضية في تلك المنطقة المحافظة، وكبرت أصداء الأقاويل وتعالى الهرج والسخط إلى أن ظهرت أمُّه العازبة بعد أن زارت مقر الدرك الوطني باحثة عن وليدها.إثرالتحقيق معها ثبت أن والده هو إبن المنطقة وأنّه قد تركها وفرّعنها بعدما نفذت كل الأكاذيب وأنها كانت تصارع الموت في الأكواخ والمستشفيات.

علِم الصغير والكبير بفضيحة الرجل الذي عرفه الجميع من رُوادَ المساجد ومطلقي العنان للحى، لكنّ القانون الجاف لم يفعل الكثير فقد سُجن وأطلق سراحه وعاد لحياته، أما هي فلا حياة لها ولا لرضيعها ولن يرحمها أحد.

1- Nissane..

(05)

صباح بارد شتوي، ناريمان تتصل.لم يرد على إتصالها فلا يزال مغمض العينين في فراش دافئ، ألحت وبالغ الهاتف في الرنين. حمله متثاقلا وردَّ عليها مستفسرا عن سبب إتصالها المفاجئ في يوم عطلة. تذكّر أنه وحيد بالبيت بعدما غادر الجميع نحو حمام القرقور الذي اشتهر بخدماته الجيدة، دار في خلده ألف تساؤل في لحظات فسلطة خفيَّة تلح عليه بأن يطلب من ناريمان الحضور إلى بيته مادام وحيدا، وقوة أخرى تحاصر الفكرة بعدَّة حواجز.

- ألو، صباح الخير

- صباح الفل ناريمان، كيف حالك؟

- الحمد لله، إشتقت اليك

- أنا أيضا أشعر بالشوق خصوصا وأني وحيد..

- وحيد؟ مالذي تقصده؟

- قد غادر الجميع في الصباح الباكر، متجهين نحو حمام معدني يقولون بأنه جيد، آه لو كنت هنا فتعدين لي قهوة وترتبين بعض الأشياء.

- فقط حبيبي..

- آه نعــم

- متأكـد؟

- وإن أضفتِ قبلة لن أرفض.

- حسنا، سأدعي أن لدي مشتريات وسأحضر اليك، حضِر نفسك جيدا.

- مالذّي أحضره؟

- قلت حضِر وانتهى.. باي

ربع ساعة، يرن الهاتف، يرد مستعجلا: أين أنت؟

- إفتح الباب أنا على بعد أمتار وبعض الشبان في الطريق، أخشى مضايقاتهم.

- لا تخشي شيئا..

في المسافة التى قَطَعَتْهَا، قطع مسافة الأناقة ووصل اليها، كل العطور لامسته وكل طرق الوسامة تبعها إلى أن نال مبتغاه، تدخُل ناريمان خائفة يتملكها إحساس المغامرة الأولى، تجلس وهي تطلب كأس ماء فيأتي به على عجل.

- مابك ناريمان، أعتقد أنّك لم تقطع المسافة مشيا لما هذا التعب كله؟

- أوصلني كلونديستان[1] إلى هنا لكن الكثيرين رأوني أدخل ربما يعرفني أحدهم وأصبح في ورطة، أنت تدرك خطر الوشاية

1- سيارات يعمل أصحابها على نقل الأشخاص دون رخصة.

– لا، لست الوحيدة التي تدخل بيتنا، ضيوفنا كثر، وعائلتي غادرت في الصباح الباكر، لم يرهم أحد، الكل سيعتقد أنّك ضيفة ككل الضيوف.

تنزع حذاءها الخفيف وجواربها الشفافة لتظهر أقدامها الصغيرة بكل البياض.وجدته تائها فيهما حينما رفعت رأسها، تعجبت وهي تقول:

حتى رجليا تشوف فيهم، يالطيف منك...

إبتسم.. كل شيء فيك فاتن، حتى قدميك يستحقان التصوير.

– كفاك سخرية، هيا دلنّي على المطبخ، سأعدّ لك قهوة بذوق شفاهك... تطلب ذلك وهي توجه شفتيها إلى الأمام وتمنح الهواء قبلة، ثم تنزع خمارها وتضعه على كتفيها لتصبح أكثر جاذبية. جلس على كرسيٍّ في المطبخ وهو يراها بكامل سحرها تغسل إبريق القهوة وخصرها يتماوج مع يديها الغارقتين في فقاعات الايزيس[1]، أنهت تنظيف الأواني التي تركتها أمه وشقيقاته ببقاياها بعد وجبة الإفطار.وضعت القهوة على الطاولة وهي تقابله وجها لوجه بياسمين إبتساماتها وشفاهها الناضحة بالسخرية والكلام الدافئ.

حمل فنجانه الملء بأحاسيس الأنوثة وأحاسيس الشهوة التي سيّطرت على الكلام، ومدّ يده إلى يدها يطلب رفقتها لإكتشاف أرجاء البيت.طاف بها الدهليز والرواق وبعض الغرف إلى أن وصلا إلى غرفته المؤثثة بالكتب والألبسة المتناثرة.

– إذن هذه غرفتك

– نعم، هل أعجبتك؟

1– ISIS علامة تجارية لمواد التنظيف.

- سيئة لحد الإعجاب

- مالذي تقصدينه؟

- بقاياك تلك التي تعتقد أنك تخفيها بوضعها في مكان مظلم.

- بقايـــا؟؟؟

- هاهو ذلك المنديل الأبيض يطلّ من تحت السرير، يبدوا أنّك قد قضيت ليلة حمراء، أخبرني كم عدد ضحايا الرغبة الذين قتلتهم في رحم المنديل؟

- ناريمان أنت مجنونة..

- كلنا مصابون بداء الشهوة، لا تجعل من نفسك ملاكا، أريد أن أعرف أيّة رواية رخيصة قادتك إلى الإشتعال أو أيّ..؟؟

- تعلمين جيدا أن لا علاقة لي بالنساء، وتدركين أيضا أنّ قتل الشهوة في الفراغ هو خلق لأخرى أقوى وأشد.

- كفـــاك..

- تعالي نجلس وحدثيني عنك، أشعر بحاجة إلى الإستماع اليك، إشتقتك.

- لحظة أذهب إلى الحمام وأعود.

لحظة خروجها من الغرفة تذكّر هيام. اللّعنة على القلب العاشق الذي يجبرنا على خيانة الأفكار والحب حتى في لحظات ستموج فيها الروح برياح الأنوثة، لا شيء قادر على فتق المستقر الضيق الذي أعيشه في صمت هيام ولا أنا قادر على الإنبلاج في عش ناريمان

السخي، هي امرأة مُحِبَّة ومُلِحَّة وبقدر حبها وإلحاحها في الحب، شهوانية لحد الخطر، يالهي، لاشك أنّ ذهابها إلى الحمّام ليس لضرورة أو حاجة، ستعود بكل الاستعداد لتخرب المتاريس والأسلاك الشائكة التي قيّد بها الزمن جسدي وحال بينه وبين المتعة، للمرة الثانية ياناريمان، وهاته المرة الوضع أخطر، فنحن وحيدان، لاشئ يراقبنا سوى ساعة الحائط التي بالغت في الدّق، لا حارس ولا برد قارس يمنعنا من التعري من عقولنا في أجساد مقفرة، جسدك آفة وجنونك أسبرين للشعر المحموم، فاللّعنة للمرة الثانية عليَّ لا عليك فأنا المصاب بهبل مزمن جرّني إلى كتابة النساء وإذن نحن شريكان في الهبل، إن قتلتني اليوم سأسامحك وأرضى بجنونك وإذا لم تفعل سألومك فأنا أكره نصف الخطيئة فالمغفرة تطلب كاملة ولا تجزيئ لها، تذكرتني يا محمود يا سيدي العظيم بشعرك، سأتشجّع إذن فانت أيضًا قد قُلت:

يأخذ الموت على جسمك

شكل المغفرة

وبودي لو أموت

داخل اللّذة يا تفاحتي

يا امرأتي المنكسرة

وبودي لو أموت

خارج العالم.. في زوبعة متدثرة.

يدان تضغطان على رقبته من خلف، عطر إشتدّ أريجه، زفير خفيف الإيقاع على حافة أذنه اليمنى ويدان صغيرتان تتدحرجان على صدره، لعنات وفزعات الرعشة الأولى يرتفع صوتها.

- هل تحبني؟

- كثيرا ياناريمان

- حب في شهوة عابرة أم حب حقيقي، كن صريحا؟

- كليهما عنوان مناسب لرواية.

تعضه من أذنه وتواصل:

أخبرني الحقيقة، لن أغضب منك فالأشياء السيئة أتوقعها دوما.. هيا... أعلم أن ليس هناك من رجل يقول لامرأة لا أحبك في لحظة إيروتيكية حتى ولو كانت عاهرة يدفع لها المال، لكنني أثق فيك فشرف الشاعر أنه لا يكذب.

لم يجرؤ على التأكيد ولم يستطع النفي، ناريمان لن تصمت إلاّ حينما تمتلء أنفاسا وشبقا ككل النساء، سحبها من يدها الصغيرة نحو فراش أرضي مستقر، إقترب بشفتيه المرتبكتين، كاد يقبلها إلاّ أنّها وضعت أصابعها الدقيقة على فمه وهي شبه عارية.

- حبيبي، ربما أشتهيك، لا أنكر، لكن مقابل هذا الإشتهاء الكبير أريد منك حبا ينافس سعي قلبي للإرتقاء إلى مرحلة الهيام الذى لا شكّ في أنه يساوي الهشاشة.

- ناريمان، مشاعري نحوك تكبر فجنبيها كل سؤال مربك، دعيني أموت فيك حبا ورغبة بكل مايحتويه الصمت من ثقافة وجنون.

– aimer c’est savoire dire je t’aime sans parler[1].

لا أدري إذا كان فيكتور هيجو يقصد ماتقصد لكن في قوله ألف معنى، أتمنى أن أجد معانيه فيك.

– عمري، إستحضارك لفكتور هيجو جعلني أعيش للحظات في قاعة التدريس مع أستاذة الفرنسية المملة

– أنت مهبول.. لوجلبت معي كتاب أبي الذي يعتقد أنّه يخفيه لكان إضافة لهبلك.

– أيُّ كتـــاب؟

– كتاب السيوطي.. نَوَاظِرُ الأَيْكِ فِي مَعْرِفَةِ[2].... ونسخة من حِكم التيفاشي[3].

– معرفة ماذا؟؟

– لا شئ.. هي كتب تتحدث عن الجنس، أظن أنّ أبي كان مطبقا جيدا لوصايا أولئك المجانين، كنت جاسوسة من الطراز الرفيع حيث أستمع كل ليلة إلى رجّ أسوار أمي الذهبية الصادحة وأنفاس أبي الذي يلهث دون توقف.

يضحكان، ثم يغرقان في قبلة طويلة تغوص بهما في عوالم من سراب تضمحل في رعشة أخيرة بعد أن يذوي ذلك اللّهب الذي أوقد

1– الحب هو أن تعرف كيف تقول أحبك دون أن تتحدث.

2– نواظر الأيك في معرفة النيك: كتاب جلال الدين السيوطي يتحدث عن الجماع والأوضاع الجنسية عمره أكثر من 500 سنة.

3– شهاب الدين أحمد بن يوسف التيفاشي:شاعر وعالم اجتماع وقانون سمي التيفاشي نسبة الي تيفاش وهي مدينة سوق أهراس –الجزائر–.

كل الشهوات وانطفأ فجأة، ناريمان العارية ليست ناريمان الأخرى، إنّها جسد مفخخ يفجر كل الرغبة بشكل أفظع كلما غرقت فيه أكثر. مؤلمة بجسدها الشرس وإن لم تفعل يقتلك أنينها وشبه الصراخ الذي تصدره وماإن تخطئ وتعتقد أنّها تطلب التوقف حتى تفاجئك بطلب المزيد، ترضى بكل شيء لكن إن عطّلت أو ما استطعت تحقيق نشوتها تصب أنهار الغضب عليك، لا تُعرف الحدود في خرائطها ولا تصل إلى مستقر لفحتها إلاّ حينما تسيل عرقا حارا فتلقي بنفسها متهالكة على ندى الفراش المضمخ ببقايا الرماد.

لم تكن عاديّة أبدا أمام بساطة ماقدَّمَهُ لها، مبتدئ، خجول لا يتقن فن اللعبة، لم يستطع مقاومة وحشية إندفاعها واستسلم بكل براءة، لم يجد تفسيرا مقنعا، هل ناريمان تشاهد الأفلام الخليعة فاتقنت كل هاته الفنون أم روايات رخيصة علمتها أم كتاب نواظر الأيك أم..؟؟

كل الاحتمالات تُقبل عنده إلاّ أن تكون قد جرّبت من قبل هذا الجنون، جنون المتعة المجانية، فلا شيء دُفع مقابل كل الشهقات، سوى ضمير قد يهتزّ لاحقا وقد لا يهتز.لا يقبل إقتحاما من جسد مشبع، فجسده برئ لا يتقن اللغة الأخرى، ولم ينضح يوما بالشهوة أمام جسد عاري. لا جدوى إذن من مواصلة الظن فالبعض منه إثم، ثم إنّ ذلك سيضيع على عينيه فرصة التمتع بجسد يلتحف البرودة شيئا فشيئا.على بعد بلاطتين تجمع ناريمان لباسها الذي أصبح كومة مقلوبة، لم تنتبه وهي تعيد حامل صدرها العريض إلى أنّه قد تمزق حين جنّت وبقي ممزقا حين شفيت من ذلك الجنون،

نظرت إليه وهي تدافع ضحكة تكاد تخرج، لملمت بقاياه البيضاء اللون ورمت به على وجهه:

- أحمق، مالذي سأفعله بأثداء هاربة عن بعضها البعض بدون سُوتيان[1] سأبدوا بنهدين لعجوز في السبعين أرضعت أطفالا بحجم مدرسة.

- يقهقه.. ومن قال لك أنّك لا تبدين كالعجوز وأنت ترتدينه.

- كلب.. كلب.. كلب.. وتغمض عينيها وتصرخ كالأطفال.اليوم نقتلك.

تهاجمه وتلقي بكل جسدها عليه، تتصيد أماكنه الأهم لتضربه وتعضه، وماكان لها إلاّ أن تنهي ذلك العراك الحميم بدفع ركبتها بكل ماتحمل من وزن بين أردافه لتستقر في خصيتيه فيصيح بكل قواه.

مجنونة، مثال المرأة المتعلقة بالحياة التي ترى في مكافحة الشهوة بالشهوة أمرا حتميا فلا الصبر ولا الصوم يجديان حينما تثور براكين غريزتها، إنّها امرأة مزدوجة تحمل خصال الطيبين وشيئا من فسق المعتدين، لا مهربة منها إن إعتادت الذروة مع رجل يمنحها دفئ الحب وطقوسه في فراش وثير.ذلك النوع من النساء قادر على فعل مالا يتوقع لخلق اللحظة وجعلها في قمة الجنون والزهو ولاشئ يجمع بين النقيضين في لحظات التعري من كل شيء فالضمير يصبح مقبرة متعددة الشواهد والمحن، عقل عابر إلى موطن الشهوات وقلب متفرغ لبواطن النهفات، لاحضور للعدم في عدمية الوجود بدون إنكسار أمام الذروة.

1- Soutien حامل الصدر.

كل أبواب النعيم يفتحها نفير العاشق إلى معشوقه الغريب عنه في ضجيج الهمسات. ليت القلوب المقبورة في الصدور المعتمة كانت أكثر تعتيما كي لا يهرب منها أيّ إحساس وربما لوكانت شفافة لعُجل بموت نصف سكان الأرض أو أكثر من فرط زيفها وكذبها اللامحدود.

بعد أن رحلت ناريمان وانطفأت كل الحرائق، جلس على حافة مقعد حجري ممسكا رأسه، شعر بدوار غريب تحول إلى صداع شديد غير مبرر، أخذ حماما دافئا أزاح به عرق الخطيئة وروائحها وعاد إلى طهارة الجسد رغم شحوب القلب، شرع في إحتساء القهوة بمرارتها وبرودتها كعلاج للفشل المعنوي والإحباط المؤقت، بحث عن أوراقه وقلمه، بعد أن شغّل جهاز الاستماع فراحت شيماء الشايب تصدح

القرييييب منك بعيييييد والبعيد عنك قريبببب.

على إيقاعها المتوازن، الخفيف.راح القلم يعزف أحاسيسه على أوراق بيضاء صامتة، تعاني الغليان فمايتسرّب إليها من حديث أكبر بكثير من صمتها، كل الشخوص حضرت، كل المشاعر إنفجرت والأحاسيس المدّثرة بالقواعد والقيم رمت ماعليها من جليد ونطقت شعرا:

الصُبْحُ النَّفيسُ مَات
لاأَرْضَ تَحْمِلُ هَذَا اللَّيْلْ
الزَّمَانُ مَاتَ في عَجِيج الضُحَى
في صَهْوَة الأَحْزَانْ
عَيْنَايَ تَبْكِي
لاَ قَصَائِدَ للهَشَاشَة

الحُزنُ في إنْشِرَاح
الغَدُ السَديمُ عَاق
أَمْتَصُ بَقَايَا ذَاكِرَة
مَثْقُوبَة
أُهَرْوِلُ نُحْوَ العَدَمْ
فَأَقبِضُ الرِيَاحَ
يُجْفِي بَيَاضُهَا وَدِيَ
وَبِالقَلْبِ لَجَاجَة تَذُم
لاعِج الهَوَى بِالقَلبِ مَحْرِقُ
وَلَالَاحَ مَنْ يَصُدُ الأَلَمْ
كَلِيل أَنَا فِي حُبهاَ
والحُبُ كَلَل وَنَدَمْ

مصاب هو بكلل قديم، زاده ضياء هيام الحارق، كللا لكنّ الندم لا، شاعرية ومجاز شعري، ربما كتاب الأغاني لأبي فرج الاصفهاني أو مجازات ألف ليلة وليلة بأجزائها الجميلة التي كان نهما في قراءتها قد أثروا على إندفاعه نحو الكتابة وربما هو شعر خفي المعنى.فما كان الحب ندما إلاَّ يوم فتح باب الإحتمال الكبير على مصراعيه وعاش المستقبل في الحاضر بالخيال الشعري والتصور الثري الذي مكّنه من وضع أسوأ الإحتمالات فظاعة وأشّدها روعة.فالخيال وسيلة سفر آمنة إذا كان القلب غير مفخخ بالبقايا والرواسب.

ذاكرة للنسيان ربما، أو ذاكرة للتيه، في زمن هش لا يسير شيء وفق القانون، قانون الله استُعْبِد وسُخر لشراذم من المنافقين وعبدة المال والجنس وقانون البشَر أصبح مرعوبا لا يطبق إلاَّ على الضعيف والمسكين.

حينما حلّ المساء، كان الشتاء قارسا يمارس سخطه على البشر، زمهرير شديد يلُف القرية، لاشئ يأتي بالجديد المنتظر، المكان يزحف على أقدام الشقاق والنفاق وتسول أخبار الغير ورصد الميت والحيِّ.

عاد أهله مبتهجين، آثار التعب بادية على وجوههم والكل يتوسله حمل الحقائب، وجد باديسُ يغلق أبواب السيارة، باديس إبن عمته الوفي لخاله الوحيد وأسرته.سلّم عليه بحرارة وضمه.

- سامحنا يا باديس أتعبناك.

- لي قال ياخالي قال يا بويّ، والله والوا خويَ، وين راك، مراكش تبان؟[1]

- الجامعة والبيت والمسجد مرة على مرة.

- يضحك، والحسناوات لازم.

- راك عارف هههه هيا أدخل نتعشى معا، لن تذهب.

- والله تسامحني الليلة،، غدا إن شاء الله نزوركم.. سلام.

يهرول الوالد المسن نحو التلفاز، كم من مرة يسألونه إن كان له أبناء آخرين يحاربون في ليبيا أو سوريا فيرد بأنَّ العرب إخوة وأنّ

1- من قال ياخالي كأنما قال يا أبي (اشارة إلى قرب الخال) لاشئ أخي، أين أنت لم تعد تظهر.

التلاحم ضرورة ويستشهد بحديثه عليه الصلاة والسلام: «مَنْ لَمْ يُهْتَمّ بَأمر المُسْلِمِيْنَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ»[1].

إختلط الحابل بالنابل في دول عربية كانت مثالا للجمال والأدب، فالمراقب الواعي يشعر بالمفاجأة والصدمة التي تليها الدهشة، ثورة أم صناعة لفرصة سياسية مستحقة؟ لم يستحضر أحد المخاطر التي قد تنجر عن هاته الإحتجاجات التي درست وفق نمط غير متقن فالحراك الذي إنطلق كردّة فعل عفوية بدأ متواضعا وبمطالب بسيطة تشمل المزيد من الحريات ووقف الفساد، إكتسب وعيا ذاتيا من داخله مما خلق أهدافا جديدة تصب كلّها في إسقاط النظام، لم يكن ذلك هدفا رئيسا لولا القمع الشديد الذي واجهت به الأنظمة أولئك المتظاهرين والمتجمهرين العزّل، إعادة بعث فرد عربي واعي ثمنه باهض ويتطلب المزيد من الدماء والدموع لكن البعث كرسالة سامية يبقى مطلبا عاقرا، فالأهداف الخفية والبواعث المستترة تجاوزت كل التصورات وأصبح تعامل الأنظمة المستبدة مع شعوبها فاشيا بأتم معنى الكلمة وبأدق مايشير إليه هذا المصطلح السياسي، حيث جوهره يقوم على نظام شمولي رجعي يقوم على العنف وسيطرة نظام الدولة القمعي، فأولئك الحكام المتسمون بالسلطة القهرية أبادوا شعوبهم بلا هوادة باسم مكافحة الارهاب والتطرف.»كيف يمكن أن تشن حربا على الإرهاب فيما الحرب بحد ذاتها إرهاب» صدق هُوَرادْ زِينْ[2] في مقولته التي غيّرت فكرة أطراف الحرب وانتصار الخير على الشر فقبل أيام نقلت شاشات

1- ذكره الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (309-312).

2- Huward zin ناقد سياسي ومؤرخ أمريكي.

التلفزيون صورا لمقاتلين مسلحين في حلب لا تعرف جنسياتهم، بلحى طويلة وهم يتقاذفون رؤوسا بشرية مقطوعة، لم يعرف أحد إنتمائهم، فلو كانوا ثوار فهم إرهابيون ولو كانت ميليشيات تابعة للنظام فهي كذلك في نفس التعريف، فالجرائم الإنسانية التي ترتكب في حق الانسان وحق كرامته كلّها أفعال شنيعة، تخريبية، إرهابية ولا أصلح من هذا التعريف الشامل.

قبل سنوات اُتُّهِم الأصوليون بالتخريب ونشر الفوضى والإخلال بالنظام، خصوصا في الجزائر التي عرفت إضطرابات هزّتها شعبا واقتصادا ودولة، لكن اليوم دوائر الاتهام اتسعت بشكل فظيع، فلم يعد أيّ فرد سواء من السلطة أو العامة قادر على تحديد الدوافع الحقيقية التي تقوم بها وعليها هاته الثورات، تعدد الأطراف في قضية واحدة يفرق أصابع الإتهام بين شعوب مقهورة تطلب رفع الغبن ودول طامحة إلى خيرات غيرها وتخشى إستقواء الشعوب العربية وتقاتل الأشقاء بنزعات فردية أو مايطلق عليه الحرب الأهلية هناك عدّة مفارقات أوقعت مختلف الأفراد والطوائف في ظلالة مستديمة.

نام الجميع على وجبة خفيفة وحديث جميل.لم يستمع اليهم وهم يعيدون سرد الأحداث على بعضهم وكأنّهم كانوا متفرقين لا مجتمعين في سيارة واحدة وحمام واحد.فتح باب غرفته فصدمته رائحة عطر ناريمان التي لا تزال محفورة في الأثاث والفراش، فزع إلى عطر رجاليّ يرشه على الأشياء والهواء خشية أن تدخل أمه فتكتشف سره بل فضيحته، إدخال امرأة إلى البيت وممارسة الجنس معها

فضيحة، وانتهاك لحرمة البيت ولو وصل ذلك إلى الوالدين المسنين لقامت قيامتهما فليس ذلك بالهيّن عند جيل كانت المرأة فيه تستحي أن تتناول الطعام أمام رجل والرجل يستحي من ليلة دخلته فيفر عن وجه والديه لأيام عدّة.ناريمان بجنونها بالغت في وضع العطور المغرية فهي تعرف أنَّ لها نكهتها الخاصة وإضافتها الاستثنائية في إيقاظ كل الجوارح وجعلها تهتز أمام فتنة الجسد وسحره.

على إيقاع سمفونيات ريتشارد كليدرمان، إحتضن وسادة باردة، يستجدي نوما لم يأت، يتساءل: هل أخدع ناريمن بامتلائي بهُيام دون أن أملك سلطة لايقاف هذا الامتلاء اللاارادي؟ مالّذي أفعله لأحول دون هشاشة قلبي أمامها؟ ولم هذا القلب الأحمق صلب أمام ناريمان فلا يتذوق إلاَّ طعم الشهوة؟ واصل يحدث نفسه: ليتك إقتربت قليلا ، قليلا فقط كي تعرفي أنك لا تعرفين خطوط التصدع التي هزّتني منذ البسمة الأولى.

الحب المنفرد وقد يكون الحب المستحيل هو أصعب الأشياء وأقساها، تعيس أن تشرب من ينبوع متجمد يملؤك جمودا وهشاشة، أن ترمي بحزمة مشاعرك دفعة واحدة إلى الإحتراق دون أن تتوهجّ أيّة شعلة تثير بعض السعادة، مُرهق أن تركض في مدار ليست له نهاية سعيا إلى حبيب لا يسمع لهاثك خلفه فلا يستدير ليسعفك حين تتوقف فيك الحياة.

(06)

نَحْنُ لا نشْفَى مِنْ المُعَاناَة حَتّى نُعَانِيهَا حَدّ النِهَايَة

مَارْسِيلْ بْرُوسْتْ.

صبر طويل على الإلتباس المتفرّع نحو كل المناحى، صمت السماء بات أمرا محيرا، كلية الحقوق تتنفس الحب وكأّنه أكسجينها الوحيد، ميّعت المفاهيم في زمن لا يحق لأبنائه إلاّ الخجل، لم يعد أيّ شيء ذو قيمة يحظى بالإهتمام، في الزمن المر كل شيء مضاد للحقيقة وكل حقيقة تخفي وراءها كواليسا من الوهم المبطن، ماأعظم كذبة الإنسانية التي ملأت شعاراتها الأفئدة وما أعظم الغياب في الحضور العابر، كل حبّ يُفَصِّلُك وفق مقاييسه، كل بداية مجهولة الملامح تنتهي بك إلى شيء غير مألوف قد يملؤك فرحا وقد يغمرك حزنا، لاشئ مطلق ولا حدس يعمل في التنبؤ بمآل الإهتزازات الدورية التي تحفر في القلب ألف بؤرة للتوتر.

حينما دخل إلى الكلية في ذلك الصباح المطير كانت الأجواء باهتة كصمت هيام وشاحبة كقلبه الذي غرق في بحور اللّذة

والحرمان، كانت السماء ملبّدة تشي بقروب مواعيد الثلوج المُنتظرة منذ سنين والمضربة عن السقوط منذ سنوات، حينما يتّحد تلبد السماء بتلبد القلب يعلوا إحساس بالنشوة، نشوة الكبر والهشاشة التي تملأ الرومنسيين في كل نوبة تلاشي أمام عظمة مملكة الحب.

عبد القدوس قادم من بعيد يحمل فرحه بين عينيه ويدلي به في كل إبتسامة، كل شيء فيه يشي بجنون الحب الذي إعتراه مذ إرتبط بامرأة رأى فيها الحياة والموت فكل مايشتركان فيه بهيّ وكل أمر تغيب عنه هي مصاب بداء الصمت مهما كانت الحيوية فيه.

دعاه إلى مجالسته، جاء مهرولا، متلهفا إليه، يحمل بحرا من الأحاسيس، يغرقه وقادرعلى إغراق الكون به، هو عبد القدوس الذي كان يخشى العودة إلى الحب لأنَّه يخشى من خيانة أخرى مع أن الحب ماخان يوما فردا بل وكل الخيانة تعرَّضَ لها ومنذ ولادته الأولى.

عاد بكل قواه، متناسيا عمره الذي سُرق في لحظة إكتشاف لم تكن في الحسبان، تهيّأ له أنّ قانون اللّه يحميه وأنّ فطرة الحدس حقيقة وإندفع يفتح أبواب الحب بكل قواه متناسيا التوقف عند لحظة الشكّ الأخيرة.الباب فُتح وتجمد الزمن الماضي ليلج بعض اللحظات المهربة من تاريخ ذلك الفرنسي الذي أحبّ امرأة لحد الإبتكار فأنشأ قبلة لها والتي أصبحت اليوم رمزا للحب والخبل.

تبادلا أطراف الحديث ساعة قبل وصول موعد المحاضرة الأولى، لا جديد يستحق الذكر سوى بضع الهمسات التي يطلقها عبد القدوس مهاجما لذاكرة الحب وماضي النسيان العريق.

النسائم القادمة من الشمال تملأ الجو برودة وحسا جميلا، كل الأيادي تتشابك وكل الأبدان ترتعش في يوم غائم وعاطفي.

دخل إلى الدهليز الطويل العبق برائحة السيّدات في الصباح، سار بضع خطوات ليجد نفسه وجها لوجه مع الحلم الذي ملأ لياليه حضورا وعمّر نهاره غيابا وضياعا، إنّها هيام الصباح الآخر في الصباح والوجه المتجدد الجمال بملامح باريسية تعطي لعبورها نكهة البهاء ونشوة التوقف فالعمر بأيّامه ولياليه بدونها مجرد مهزلة.

إنتبهت اليه وهو يفرغ أشواقه في نظرات عاشقة، يرميها بها سهاما، كانت تنظر اليه خلسة خشية التسبب في تضييع عقله وتشتيت ثباته بفتح دواوين من الإحتمالات بينها وبينه وقد تكون غير صالحة للقراءة.

تقهقر الإندفاع الكبير، صمتت كل الأصوات الداخلية إلى أن دخل إلى المدرج بأسف لا يعلم صداه إلاّ قلبه الهش.

الدرس سيكون معها سيكون مساء والى ذلك الوقت تولد آلاف النصوص وتصلب دون توقف، فضجيج الأفكار يملأ العاشق تيها وتشييدا للأحلام.

ناريمان المملوءة بالبهرجة والأنوثة تملأ المكان عطرا وضجيجا، وجدها مصادفة بعد ذلك الموعد الحميميّ المجنون.شعَرت بشئ من الارتباك الذي ظهر في تلعثم لسانها المفاجئ أمام رفيقاتها.

تذكّرها عارية فاحمرّ وجهه وتذكرته بلاشئ يغطيه فتلعثمت، إنه موعد أول له حساسياته، ولاحقا لن يحدث شيء من هذا القبيل

فالأجساد لها لغتها ودوافعها كي تتآلف وتتماهى في بعضها، تقدّم إليها مسلما على المجموعة ومصافحا ليدها الباردة، سحبها معتذرا بحاجته إليها وراح يلقي عليها قصائد الجمال وكأنَّه يراها للمرة الأولى.

إستفزّت ميولاته الأدبية. دعته لدخول المدرج رفقة بقية صديقاتها اللواتي يدرسن الأدب من أجل محاضرة يقال عن الدكتور الذي سيلقيها أنه شهير ومتميز، والموضوع هو الشعر الجزائري الحديث. لم يكن ليرفض ذلك فالشعر إدمانه الذي أصابه من عمر بعيد، ولجا المدرج، إختارا مكانا قصيا لا يثير أيّ انتباه، المحاضر فاخر الأناقة، وسيم المحيا، يبدوا واسع الثقافة وسخيَّ الفكر.

شرع ينتقد وضع الشعر ويُذكر بأمجاد الماضين من الشعراء ويبكي حال اللغة العربية التي تحولت من ملكة في قصور اللغويين والكتاب والشعراء إلى خادمة تنقل الأفكار دون مزية وربما دون إحترام، مما أغرق الكثير من النصوص في الجفاف وربما الرداءة.

واصل يتطرق إلى الشعر في تلك الحقبة المظلمة، أيام الاستعمار الغاشم، أين احتضر الأدب آلاف المرّات، كان يُذكر بمفدي زكريا وإبن باديس وماجادت به قرائح ذلك الزمن الذي امتلأت فيه القلوب غيضا فانفجرت ثورة وشعرا.

فجأة رفع يده طالبا الكلمة، إندهشت ناريمان وخافت على نفسها وعليّه من طردهما، فهي تدرك حجم إنفعاله في المسائل الأدبية

وتجّزم بأنها لم تفهم شيئا من الموضوع ولم يكن عقلها حاضرا أصلا حينما كان الأستاذ يفسر ويشرح.

إستغرب الأستاذ طلبه للكلمة، بل تعجّب وفرح في نفس الوقت، فلا أحد يجرؤ على توقيفه أثناء المحاضرة أو سؤاله فالكل يراه جليلا لا يناقش.

-كإشارة أو إضافة يا أستاذ، أنت لم تذكر أحد كبار الشعراء الجزائريين من الذين ظلمهم التاريخ وحفّهم النسيان، هو أيضا صديق للشيخ أحمد إبن باديس ولقّبه هذا الأخير بالشاعر الفطري.

- هل تقصد الشيخ محمد البشير الابراهيمي؟؟

- لا الشيخ الابراهيمي له شهرة وصيت ولا يزال يذكر إلى اليوم، أما هذا الشاعر الذي أنا بصدد الحديث عنه فهو في العتمة منذ زمن بعيد ومصابنا في هذا العالم أن الكثير من الكبار همّشهم التاريخ، فلا يختلف حاله عن حال الناقد الكبير محمد مندور الذي جفت الأقلام عن ذكر صداه.

يتعجب الأستاذ، تستدير الرؤوس نحوه رغبة في إكتشاف صاحب هذا الصوت.

- إذن من هو؟

- إنّه الشاعر الشيخ محمد بن بسكر[1] الذي آمن بالمبادئ العلمية والإصلاحية التي دعا اليها الشيخ إبن باديس فسخّر لها الشعر

1- توفّي سنة 1942، تعود أصوله إلى مدينة بوسعادة الجزائرية.

وسيلة وغاية وله قصيدة شهيرة بعنوان «ومالعلم إلاّ مشاع[1]» أظهر فيها جزالة حرفه وعمق هدفه، أحفظ منها القليل، فشعره الغزير لا يتيح للقارئ التمكّن من تحصيله.

بإبتسامة تظهر شيئا من الإعجاب: نورنا بأبيات إن أمكن، عفوا ماإسمك ياطالب وهل درست عندي سابقا.

– لا ليست لديّ أيّ علاقة مع كلية الأدب، مجرد زائر ومحب للأدب، أما أبيات الشاعر الشيخ فجاء فيها:

متى فكّر الناس واتحدوا ... فعدوا على النفس واعتمدوا
وضموا الي العلم حسن الرجاء ... وزال التخاذل والحسد
يحقق ربك أبدع ما ... رجوه ويخلق ماقصدوا
فما نيّرات النجوم بشئ ... بعيد المنال اذا اجتهدوا
وماراسيات الجبال بشغل ... عسير الزوال اذا اجتهدوا
فكم من المستحيل على العقول قد ... نفاه بنوا العلوم اذا رشدوا
وكم أوضح الله أحجية ... أتوها ومن جهدوا اوجدوا

أَعجب الأستاذ باطلاعه وأثنى عليه ودعا إلى الاقتداء به.في آخر الحصة طلبه، دار بينهما حوار قصير إنتهى بتبادل لأرقام الهواتف من أجل قيام الأستاذ بمراجعة روايته التي لم يبق الكثير على اكتمالها.خرج الكل دفعة واحدة محدثين لضجيج كبير.

غادردون أن يسلم من نظرات طالبات الأدب اللواتي اشتهرن في تلك الجامعة بكبر المؤخرات وترهلها والسعيّ وراء الزواج وكنّ مثال

1– نشرت في مجلة الشهاب سنة 1349 هـ – 1930م.

اللهو والتأنق المبتذل.ناريمان شعرت بالنخوة وهي تسير بخطى ثابتة مملوءة بالثقة والإعجاب رفقة شاعرها وحبيبها الذي إمتلأت به.

لزمه الصمت، صمت المحبة الخائبة التي تتحرك بداخله كلّما شعر باندفاع ناريمان نحوه، لو أعاد التشهير بتعلقه بهيام أمامها لتسبب له ذلك في خلل فادح يهز جمال الحضور وسكون العواطف ويخلق دموعا في موقف غير مبرر ألا وهو إستجداء الحب في قلب مملوء يكاد الأمل ينعدم فيه.

وصلا إلى مطعم جديد، تمّ فتحه قبل أيام قليلة، مظهره يوحي بخدماته الراقية، محيطه يثير شهية أيّ عابر، ولجاه، إختارا زاوية مزينة بالورود والوان الجدار العاطفية.وضع الهاتف والحقيبة فوق الطاولة كانت أعينه موجهة صوب واجهة المحل، شد انتباهه شاب يصفع فتاة بكل قواه، ثم يحتضنها بما أتيح من حنان، ضحك بشئ من السخرية، تعجّب من جمالية اللاتوازن في غمار العاطفة المجنونة.

قبّلته ناريمان بشكل مفاجئ قطع كل التيه، مصّت لسانه جنونا ومحبة، انتبه النادل لشهقتها الأخيرة فضحك كمن به مس من الحرمان، ضحكة من يبحث عن شوق ضائع لم يعد له من توهج.

صمَت فجأة فدورا تلك القبلة المحمومة ملأه مطولا، كان غائبا في حضور نشوة الحب فلم يكن ليجاريه لولا قطار الشهوة الذي بعثره في لحظة شرود.تمتم بأشياء غير مفهومة، حدّقت فيه ناريمان مطولا وهي تحاول فهم همسه الرّطب الخفيف.

– ما الذّي تقوله وماسر هذا الصمت الذي غطّى الأشياء فجأة؟

- لا شيء ياناريماني، بعض الأفكار تعبرني في لحظات الدهشة، وقد تذكّرت أبيات من الشعر لخليل مطران فارتجف خاطري وشعرت بشيء يهتز بداخلي.

- تتابع الشعر بشكل جيّد، بل وتحفظه، ألا يرهقك ذلك؟

- لا أبدا، فالشعر هو الشيء الوحيد المتبقي لي بعد الهزيمة التي تلقاها الجمال في هذا الكون، لا شيء يشبه حقيقته وكل مانعيشه مجرد إنعكاس لصورة كاذبة لا تعزينا على مانحن فيه.

- ....لا عليك، ماهي الأبيات التي دارت في خلدك؟

- حسنا ياناريمان، جنونك أصبح من يومياتي:

اظْلُمِيّنِي مَاشَاءَ ظُلْمُكِ وَانْهَيْ
آمِرَ الحُسْنِ أَنْ يَكُونَ شَفِيقا
عَذِّبِينِي فَقَدْ جَنَيْتُ عَلَى نَفْسِي
وَأَمَسَيْتُ بِالعِقَابِ حَقِيْقَا
فَلِهَذَا العِقَابِ عَاوَدْتُ حُبِي
ولأَلْقَاهُ خُنْتُ عَهدًا وَثِيقًا

- غريب؟ مامناسبة هذه الأبيات وعن أيِّ ظُلم تستشهد بالشعر، لا تقل لي أنه ذوق وفقط، لاشيء يبرر ماقدمته.

- هي خواطر وأحاديث في القلب عزيزتي ويبقى الشعر شعرا بما يحمله من جمال ومجاز.

– لا لا لا أنتم الرجال مخادعون، قل إنَّ العَاهِرَة الأخرى لا تزال تغلي بداخلك.

– عن أيّ امرأة تتحدثين ناريمان، مابك؟

– القحبة ديك هيام، أنت والله ماتستاهل أيّ شيء.

– ناريماااان.

تَنهضُ مِنَ الطاولة مخلِّفة لضجيج كبير بعد أن أسقطت ماكان عليها من كؤوس، لم يجد من شيء ليقوله للنادل الذي سارع إليه بعد خروجها يجمع الحطام. تمالك نفسه واستجاب لكلام النادل الذي هوّن الأمر عليه ووجد في ذلك حجّة ليشرع في التفلسف والتكلف في الحديث عن النساء.

لم يلحق بها بل إتّجه إلى المقهى المحاذي للجامعة وطلب قهوة مركّزة وهاتف عبد القدوس طالبا حضوره. شعر عبد القدوس باضطرابه فصوته لم يكن عاديا، فجاء بعد دقائق مهرولا مملوءا بالحيرة والشك.

– مالذي حدث لك؟ إتصالك المفاجئ ونبرة صوتك أفزعاني.

– إنَّها ناريمان يا صديقي، تسببت لي في فضيحة ومهزلة لم تحدث معي مذ ولدت.

– هههههه ناريمان، كل شيء متوقع معها.

– إضحك أنت فلا يهمك، لو كنت حاضرا لأصبت باحباط مزمن جرّاء تصرفها المتهور أمام جمهور من مرتادي المطعم الجديد.

– لكن كيف حدث ذلك، لابدّ من أنك فعلت شيئا خطيرا مما جعل ردّة فعلها قوية.

– بضع أبيات من الشعر جعلوها تثور في وجهي وتقلب كل ماهو موجود على الطاولة.

– شعـــر؟؟

– نعم، أبيات لخليل مطران فيها شيء من الولع والتظلم، إتهمتني بالإمتلاء بهيام وبأنّي لا أستحق أيَّ شيء جميل منها وغادرت بعد الذي أحدثته من فوضى.

– ربما ستصبح ماري لويز الجديدة، ولم لا هههههه.

– عبد القدوس، كفاك سخرية، ماعلاقة ناريمان بماري هذه.

– أو ليست هي من حاولت إنقاذ نساء العالم من ألم خيانة الرجال بعد إكتشافها أن جاك الذي وثقت به يضاجع امرأة أخرى في فراشها وهي ترتدي ملابسها الداخلية ويقول لها نفس الكلام الذي إعتادت سماعه منه.

– مريـــــع..

– نعم وقد أردته قتيلا وأجبرت تلك الفتاة على المغادرة عارية نحو الشارع، لتركب هي سيارتها وتقتل عريسا في طريقه إلى عقد القران وأطلقت النار على كل الأطفال الذين رأتهم بعد أن قالَت لهم «ستكبرون وستصبحون رجالا وتخدعون فتيات كثر لذا سأنقذ نساء العالم من الألم الذي شعرت به».

– بعض خطايا الرجال لا تغتفر فعلا، لكن أنا ما قلت لها شيئا، ثم إني قد أصحبت غير قادر على التحكم في هاته المشاعر البليدة التي سلبت عفويتي وجعلتني أسيرا لتخمين لا حدود له.

– لا عليك يا صديقي، ناريمان قلبها أبيض وكل الأمور ستعود إلى مجراها الطبيعي.

– عذرا عبد القدوس نسيت أن أطلب لك شيئا تشربه، وهذا النادل الغبي الذي ألفنا ذاكرته المثقوبة وحركاته البطيئة لا ينتبه لشيء.

– لا عليك،سأطلب زنجبيل وأنا من سيدفع.

– دعنا يا عبد القدوس، فلست في وقت مناسب لأناقشك في دفع الحساب، والله لن تدفع سنتيما.

– «والله» تسبقك دوما، لا داعي للحلف مرة أخرى.

نصف ساعة أخرى من الحديث والغوص في كل محيطات الكلام من السياسة إلى الحب إلى أحاديث الهشاشة والوجدان، كلها محبة وصداقة تلك الجلسات، عمر الذاكرة يطول كلّما وجد الإنسان طرفه الذي يشبهه في فرحه ووجعه.

غادرا نحو بيته، لما وصلا وجدا والده الشيخ جالسا عند عتبة الباب، رحّب بهما مبتسما ودعاهما إلى مجالسته، جلس عبد القدوس يسأله عن حاله وأحواله بينما دخل إلى البيت مناديا على أمه طالبا تحضير القهوة.

شرع الوالد الشيخ في الحديث عن مختلف مناحي الحياة وعن أيّام باريس وحكاياتها المتعددة والجميلة.حديث شيّق زاده حضور

القهوة والتمر الجيد جمالا.في مجالسة الكبار والإستماع إلى ذاكرتهم هناك نكهة غريبة تأخذ الروح إلى المنابع الأصيلة للأخلاق والجمال، يوم كانت القلوب بجميع أعمارها تتشابه في الطيبة إلى حدّ السذاجة وتتنافس في حب الخير والسعي اليه.

في فرنسا تنسى نفسك أولا ثم الهوية هكذا قال الوالد الشيخ، حيث تغرق في الهرج والمرج اللذان يفقدانك معالم الهوية شيئا فشئ فتصبح بدون عقيدة محددة وتثبت على الأهواء.

- لماذا يا عمي لم تقم بأخذ أبنائك إلى فرنسا، أنت تدرك جيدا أن لا شيء هنا يستحق البقاء.

- يا عبد القدوس، ياولدي، أنت مخطئ تماما، لم أرض لأحد نسيان الله ونسيان الأهل والأحبة، كم حدث هذا في تلك الأيام، أعتقد أنه لا يزال يحدث مع الشباب الذي يرى في الهجرة حلما بدون كوابيس. لا يزال طيف «عثمان بن ساعد» عالقا بوجداني ولا زلت أتذكر جيدا أول يوم إستقبلته فيه ببيتي في باريس كان شابا يافعا قوي البنية، ودودا، بشوشا، بقي عندي في البيت لأيامٍ طويلة وكنت سعيدا به سعادة لا توصف فوحده الذي كان يحمل إليَّ رائحة الجزائر وعبقها الذي إشتهيته واشتقت له.

في خضم يومياته المليئة بالإكتشافات والجولات تعرّف على فتاة فرنسية تدعى «مارينا بريت» في أحد النوادي الباريسية، تبادلا بعض المعلومات حول الإقامة والعمل والظروف المحيطة.بدأت الزيارات تتكرر بينهما، إنزعجت في بادئ الأمر لكنّه أقنعني بأنه سيتزوجها لتكون خليلته وتُحسِن ظروفه.مع أنه لم يكن بحاجة إلى أيّ شيء.

أيام قليلة، بدأت طباعه تتغيّر وزاد مرحه عن الحد المعقول، ترك الصلاة وأصبح لا يدخل البيت إلاّ بعد منتصف اللّيل، تحسّرت كثيرا وحاولت مناصحته دون جدوى إلى أن دخل ذات ليلة باردة مخمورا يتهاوى على الجدران فماكان مني إلاّ أن طردته من البيت. لم أره بعدها لمدّة شهر إلى أن قدمت إليّ الشرطة باحثة عني كي تعلمني بحكم إقامته عندي أنهم قد وجدوا جثته على جسر ميرابو[1] مقتولا برصاصتين، بعد أيام من التحقيق عرفوا أنّ عشيق مارينا هو من جنى عليه. هذه هي عاقبة اللهو والمجون يا بنيّ «ومَاالحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورْ»[2].

– معك حق يا عمي، لكنّك كنت تعيش حياة رغيدة هناك في باريس، كيف قرّرت العودة إلى الجزائر بلا رجعة، ألم يكن ذلك القرار قاسيا نوعا ما؟

– أبي أعجبه هذا الزمن الهش الذي نعيشه هنا ياعبد القدوس، لاشئ مقنع فهو وحده المقتنع بضرورة البقاء على أرض الأجداد وحبها والعمل عليها وتطويرها.

– ياولداي: ألم تنتبها إلى قول اللّه تعالى: «إِعْلَمُوا أَنّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَة وَتَفَاخُر بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُر فِي الأَمْوَالْ وَالأَوْلَادْ كَمَثَل غَيْث أَعْجَبَ الْكُفَارَ نَبَاتُهُ ثُمّ يَهَيِّجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخرَة عَذَابٌ شَديدْ وَمَغْفِرَة مِنَ اللّه وَرُضْوَان وَمَالحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغَرُورْ»[3].

1– Pont mirabeau –paris.

2– الآية 185 سُورَة آلْ عمْرَانْ.

3– الآية 20 مِنْ سُورَةْ الحَدِيْدْ.

صعبة يا أولادي فاحذروا البهرجة والزيف وتمسكا بالحقيقة التي بثّها الله في دينه الحنيف.

- معك حق يا عمي، ماأصعب أن يغفل الإنسان عن تكوين قاعدة صلبة وسليمة يستند اليها.

- عبد القدوس.. تأخرنا يجب أن نعود إلى الجامعة قبل الرابعة كي نسحب الإستمارة الخاصة بالتوجيه.

- حسنا، عمي أستودعك الله، أطال عمرك وبارك فيه.

- وداعا يا أبي سأعود مساءً على السادسة.

- ربي يحفظكم ويبقي الستر عليكم روحوا بالسلامة.

يدخل على الساعة السادسة إلى البيّت بعد يوم متعب، دخل الحمام حاملا ثيابه، فتح المرش على آخره، إمتلأ الأفق بالبخار، وقف أمام المرآة يتأمل تفاصيله وملامحه المتعَبَة فإذا بها تتقاطر ماء وقد أصبحت لا تُظهر منه شيئا، رفع سبّابته اليسرى ووضعها على يمين المرآة وراح يعزف:

هَيَامُ يَا عَرُوسًا بَيْضَاءْ
تَقْبِضُ الأَحْلَامَ فِي مَجَارِي
الرُّوحِ السَقِيمْ
هُيَامُ يَا عُمْرًا لَمْ يُكْتَبْ
وَيَاسَاعَاتٍ مِنْ دُنْيَاي
تَضِيْع

سَأَسْرِقُ الأَشْوَاقَ
كَيْ أُهْدِيكِ إِيَاهَا نَصًا
خَالِدًا لَا يَضِيع
أُحِبُّك.

نظر مطولا يرى الندى شعرا يُمحى متساقطا كأشواقه التي ضاعت في رياح الأماني والإنتظارورواح يحدث نفسه: اللعنة ياهيام، أقف على خط السكيلتون[1]، أقف بين الجفاف والندى في عتبة قلبك الذي أخشى دخوله، فلا أنا دخلت ولا أنا عدت من حيث أتيت، أيُّ بَحْرٍ هذا وأيُّ رمال في هذا الشاطئ الهش وأيّن المفر في هاذين المستقرين المخيفين.

أنهى الإستحمام مستعجلا ودخل إلى غرفته بعد وجبة خفيفة، راح يفكر، عبرته كل الأحداث الغابرة وفي نوبة حب وجنون رفع هاتفه من أسفل الفراش، فتح المعابر المغلقة وكسر هذا الطابو المسمى هيام.

Manu-messages-nouveau message

Bonsoir: il faut que ma chére proffesseure sache. quelle n'est plus ce quelle était. elle habite mon cœur et envahit mon esprit.[2]

1- The skeletoncoast أحد الأماكن القليلة التي تلقتي فيها رمال الصحراء بمياه البحر ويقع في نمبيا.

2- مَسَاءُ الخَيْر يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ أَسْتَاذَتِي الغَالِيَة أَنَّهَا مَاعَادَت مُجَرَدَ أستَاذة لي، لأَنَهَا سَكَنَت القَلْبَ وَجَعَلَت مِنَ الرُوح وَطَنًا.

إشارة وصول الرسالة ظهرت على الشاشة، إذن هيام تقرؤها الآن أو ستفعل لاحقا، لا مفر من رسالة حملت شيئا من أشواق لا تكفي جرائد الوطن لرسمها، فكيف سيكون ردّها، هل سيكسرها كطابو ممنوع من التفكير فيه أم سيكسر إندفاعه ويزيده هشاشة، لا يدري أحد ما تخفيه اللحظات القادمة التي إنطلق عدّها كشهور طويلة، برمج الهاتف على رنّة قوية وراح يتوسل النوم أن يزوره.

عشر دقائق كانت كافية لإغراقه في بحر من الأفكار التي ملأته، هاتف لم يرد ولا رد على وروده القابلة للذبول في أيّة لحظة.

سكوتها فاجعة تحمل ألف إحتمال وتأويل ونطقها بمالا يشتهي قلبه قد يجرُّ عليه الويلات واللوعات التي لا حدود لها، إذن مزيدا من الصبر.

عشر دقائق أخرى، اللعنة بأيّ سهم مسموم قذفتني يا كيوبد[1] لأحتمل كل هذا الإنتظار الملئ بالخوف والرعشة، ربما نامت لكن الوقت مبكر على ذلك، ربما أصيبت بالصداع فنامت، لكن أيُّ صداع هذا الذي يجبرها على النوم في هذا الوقت؟ ثم إنّ أودلف[2] كوسمال قد إجتهد كثيرا وجهده ليس عبثا فلن تنام بسبب صداع عابر تملَّك كل الأحياء.ربما هي تستحم الآن بعد يوم شاق ومرهق، لا لا حتى عمو حاجي[3] لو قرر الإستحمام لن يبق هاته المدة، جسد طريّ ومملوء بعض البُخار يكفيه ليزيل تعبه فينام وحيدا كطفل معاقب.

1- أي الالهة فينوس في الميثولوجيا الرومانية واشتهر بالوسامة وحمله للسهم وقد كان سهمه يصيب البشر فيتسبب في وقوعهم في الحب.

2- مكتشف المركب الذي يصنع منه الباراسيتامول المعالج للصداع والمتعدد الإستخدامات.

3- رجل ايراني يعيش في مقاطعة درهم لم يستحم منذ ستين عام.

عشر دقائق أخرى من الصمت، يأس قاسي بدأ يتسلل إلى فراشه الحزين وفجأة إهتزّ فراشه برنّة متقطعة.

حمل الهاتف بيديه الاثنتين، رمز الرسائل متعدد الألوان، لامع، رسالة جديدة، هيام إذن..

تردد في فتحها: مالذيّ تحمله هاته الرسالة؟ شؤم أم غنم؟ اللعنة، أغمض عينيه، ضغط على الزر (أوك).

فتحت، كل شيء ضبابي:

Abdelkodous –appelle-moi-stp [1]

أووه يا عبد القدوس، كم أنت غريب الأطوار ومفاجئ كخيبة غير منتظرة، راح الهاتف يكسر صمت الظلام برنينه.

– ألو، أهلا عبد القدوس، ما الّذي حدث، فاجئتني؟

– عذرا صديقي لكنّني في ورطة ويجب أن نلتقي صباحا فالأمر لا يحتمل الإنتظار.

– ما الذّي حدث، أخبرني الآن؟

– لا لا القضية تتطلب موعدا وليس مجرد حديث في الهاتف.

– متأكد من أنّك بخير؟ وبأن الأمر يحتمل الصبر إلى الصباح؟

– نعم صديقي فقط تذكّر ذلك، سأتصل بك صباحا.

1– عبد القدوس: إتصل بي من فضلك.من الرسائل المجانية التي يستفيد منها مشتركوا المتعامل جيزي بالجزائر.

- حسنا، تصبح على خير.

- ليلة سعيدة.

حركات بطيئة، جسد متثاقل، يد ممتدة إلى هاتف بارد وقلب ملئ بالانتظار واللهفة.راح يحدث نفسه: ماذا لو ردَّت بكل قسوة وكتبت كلاما يحمل كسورا وآلاما وماذا لو لم ترد تماما؟ كيف سأقابلها بوجه فارغ وقلب مكسور، هل ستفضحني أمام الملأ وأمام كل الطلبة؟ فتعلن إنهياري، اللعنة ربما أكاديميتها البالغة ستفعل بي الكثير وربما الهشاشة البادية على عينيها ستفعل الكثير أيضا لكن مالذي سيحدث؟ إلى متى وهل سيطول حريق الانتظار؟

رنين آخر..

دق غير طبيعي في قلبه، أنفاسه سقطت في جوفه كدلو في جب عميق، تُراه عبد القدوس ثانية، تشِعُّ الألوان على الشاشة وتتلألأ، زر واحد يكفي لفتح كل المفاجآت، ويضغط عليه، إنّها هي، إسمها يملأ أعلى الشاشة جمالا ورفعة، ينظر إلى الإسم مكتفيا فالنص أسفله يثير فوبيا ما، لكن يجب الإطلاع عليه.

Dores[1] mon petit et arrête ces bêtises.. fou !!!

تطلب مني نوما وكفا عن الشغب، كم أنت مجنونة يا أحلى إختطاف تعرَّضت له في هذا العمر التعب، كيف سأسرق منك فرحة ما وسط هذا الأرق، كم أحبك في غيابك عن مشهد القلب فكيف سأحبك لو كنت تقبعين في المقعد الأول للفؤاد، أشعر باسمك

1- نم يا صغيري وكفاك شغبا، مجنون.

يتوهج داخل أضلعي ويحملني إلى هشاشة جميلة، ربما حضورك يعني إستقامة الحظ وربما غيابك يعني التعثر بممرات البلاهة والإنكسار، لست أدري.

ما الذي تخبرني به هاته الرسالة القادمة من صبري المكسور وأنا العائد من المجازفة الكبيرة، لا شيء.

أغمض عينيه، وضع وسادة على رأسه وقرر تعليق التفكير إلى نوبة أخرى، أراد نسيان إندفاعه وتعمّد اللافهم وتقبل أيّ إنهيار أو نتيجة تحصل جراء كسره للمتعارف عليه وإقتحامه لجنون اللامنطق.

الليل عسير، بانتظار رسالة أخرى لن تصل، نوم متقطع، تراوده أشباح الغد المخيف والليل طال أمده وكأنّه سرق من الدهر الطويل ساعات إضافية، لا اليمين أراحه ولا اليسار جفّف أرقه.

مرّت الساعات بكل بطئها، إلى أن حلّ الصباح المشرق، صباح المفاجآت والإنجلاء وصباح الخوف والشك. إرتدى أجمل ما يملك بعد حمام ساخن، رتّب أغراضه بما يليق بساعته المستعجلة ووضب شؤون الوسامة الصغيرة وغادر البيت.

النقل الجامعي متأخر دوما، يأتي بالطلبة مكدّسين ومملوئين بالصبر والإبتسامة ككل المرابطين في عالم متوقف ينتظر حراكا لن يكون.

نصف ساعة من الانتظار دون شفقة من الصدفة أو من العابرين بأفخر المراكب، يتّصل عبد القدوس وقد نال منه الانتظار: أين أنت من المفروض أنّك وصلت منذ نصف ساعة؟

يرد عليه بصوت متأسف

- عذرا يا غالي، النقل معطل ولا أدري ماهي الأسباب، فقط انتظرني ومزيدا من الصبر.

أراد التقدم بضع خطوات ليشاهد الطريق التي تعج بالمنتظرين فاذا بسيارة سوداء تتوقف بشكل أثار الإنتباه وملأ الأفق غبارا، نزل رجل بمعطف أسود ثمّ عاد للركوب، لم يظهر من وجهه شيء. المعطف الأسود الطويل حرّك فضول المارة في مدينة لا يلجها الغرباء كثيرا ما تتهاطل النظرات الفضولية على العابرين والمتجولين.

ينادي صوت من خلف الزجاج الأسود للسيارة: يا ا شاعر الشعراء هيا ا ا، من وهل يقصدني؟ فكّر مليا في النداء فلا أحد يعترف بشعره وربما لا أحد يعلم بأنه شاعر في مدينة سرقت البطون ثقافتها وفي وطن إحترف قتل مبدعيه.

فتح السائق الباب وصاح بكلام رافقته إبتسامة عريضة

هيا ا ا هيا ا ا.اللعنة هذا أنت يا عبد القدوس فاجأتني كيف أتيت؟ ماتوقعت حضورك وفي هذا الظرف.أصبحت تثير دهشتي دوريا، ليتك تفعل معها أيضا.

صعدا السيارة، وجد نفسه مع رجل غريب بملامح جادّة فوق العادة، رحب به وانطلقوا نحو الجامعة.

كان الصمت سيّد الموقف وحركات عبد القدوس توحي بانكسار وتوتر غريب فمذ أغلق باب السيارة ضيّع إبتسامته وكأنّه دسها في مكان قصيّ.

عشر دقائق من الصمت والشك كانت كافية لفتح كل التخمينات وتوسيع أفق الريبة إلى أقصى الحدود، كاد يسأل عبد القدوس عن المكالمة المرتعشة التي أخلطت حساباته حينما كان قلبه يرتجف من رد لم يأت بعد. لكن إعتقاده بأنّ إتصال عبد القدوس له علاقة بهذا الحضور الغريب وهذا الرجل الذي غابت الطلاقة عن وجهه منعه من الحديث والإستفسار.

ركن السيارة بكل هدوء، نزل عبد القدوس وصاحب المعطف بحركات سريعة، تتّبعهما من الخلف دون أيّ فهم لسر الرسمية التى طغت فجأة ومن دون مقدمات، شيء غريب يحدث فلم يسبق أن أطبق الصمت على عبد القدوس بهذا القدر المريب.

ملامح الرجل الغريب تقاربت تماما مع ملامح العبوس والتّجهم التي كان موباسان[1] رمزا لها في زمانه والذي إنتهى به الوضع إلى إصابته بالجنون إثر شكواه المستمرة من الصداع. أيّ سر تحمله اللحظات القادمة وعن أية فاجعة سيسفر هذا العبوس وهاته الوجوه التي إكفهرَّت كامرأة إصيبت في غيرتها.

لا يزال السير على طريقة أبطال «الماحي»[2] متواصلا إلى وجهة غير معلومة كما أنَّ تأخره ببضع خطوات مستمر، لا فكرة تناسب هذا الموقف الهلامي، تأخره مكّنه من الإحاطة بما حوله من مجانين دخلوا في التيه والنسيان ومن عشاق تناثروا تحت الأشجار وفي الأماكن الأكثر ضيقا تجنبا للأعين الحاقدة، كل شيء على

1- Guy de Maupassant كاتب وروائي فرنسي 1850-1893.
2- L'effaceur (eraser) film d'action de chuck russell sortie en 1996.

مايرام مادام المجانين قد إستسلموا لتيههم الأبدي والعشاق الذين تلامست أنوفهم رضوا بالسرقة الجميلة التي تعرّضت لها قلوبهم في غفلة تعمدها القدر. إلاّ هذا الرجل القادم من رواية بوليسية قديمة والذي قام بتهريب الابتسامة من الوجوه إلى وجهة مجهولة.

كل الأفكار تجمّدت والجد إنكسر في صدمة غير متوقعة، بهت العاشقون والعابرون والكل توقّف ليشاهد إمتقاع لون ذلك الشاب الذي امتلأ حمرة وحياء بعد أن تلقى أكبر إنكسار أمام الملأ بصفعة من فتاة ترتدي لباسا شرعيا، صرخت في وجهه بكل ماتملك من جرأة وطاقة: كلب لا حياء لك، تطاردون بنات الرجال، أيّ رجل أنت. جحظت عيونه دون أن يردّ بكلمة وراح يسحب يده إلى الخلف، يد مرتعشة فقدت قوتها وخارت، لم تكن لها مقدرة على الرد، دمعتان من تلك المتجلببة كانتا كافيتين ليلتف حوله الفضوليون ويغرقوه في بحر من الشتائم واللّعن.

مجتمع غريب يمجِّد المرأة بقدر مايكسرها، يضع لها أصفادا كي تندثر ثم يعود ليلملم إنهيارها، كل المدافعين عنها لو كانوا عليها أسيادا لدافعوا عن قهرهم لها، امرأة تفوقت بالدموع فيا لنزاهة هذا التفوق الهش، وجه ذلك الشاب الجميل أصبح المسكن الأول للشفقة والممثل الشرعي للهشاشة والتحطم، بقدر جماله كان ردّه أمام الوفود التي سخُّرت وقتها لشرعنة فعلها الذي لا يمثل الأنوثة في شئ، حيث توارى عن الأنظار وهو يردد: حسبي اللّه ونعم الوكيل. إن كيدهن لعظيم.

كسر مميت ومزمن حينما تنهش كرامة رجل أمام العلن، لاشيء يحتوي ذلك الانكسار إلاّ صمت الهوان والتعثر.

وصل عبد القدوس والرجل الغريب إلى المقهى ولحق بهما متأخرا بثواني قليلة، جلسوا حول طاولة مستديرة تشبه الطاولات المزيفة الخاصة بالرسميين، جاء النادل مسرعا يوظب الكؤوس، طلبوا منه أشياء متفرقة ولم يطلب أحد لأحد شيئا.

وصلت الطلبات على وجه من السرعة وبعد رشفة قهوة نطق الرجل الغريب بصوت خشن مملوء بالجدية والغضب موجها خطابه لعبد القدوس بنبرة مستعجلة: أنت مسؤول عمّا حدث وستتحمل نتائج أفعالك، سمية فتاة من منبع طيب ولا ترتكب هذا السفه إلاّ بتوريط منك، كن رجلا وتحمّل ما أصبت به غيرك وإلاّ فأنت تعرف النتائج.

– أيّ نتائج أتحملها عن ذنب لم أقترفه، ستدفعون أنتم ثمن عهرها وسقطكم، أما أنا فبرئ أمام الله وأمامكم.

– حسنا يا... سترى. ووضع الكأس على الطاولة بطريقة فظّة وقام دون سلام وإلى وجهة غير محددة.

تابعه عبد القدوس بعينيه وهو يغادر إلى أن غاب ظله وتوارى عن الأنظار.

– هل رأيت يا صديقي، لا تلمني وسوف أروي لك، هل تعدني بذلك؟

– مالذّي جرى يا عبد القدوس، تكّلم، من هذا الرجل؟

– إنها بداية إنهيار الأحلام يا عزيزى، فجأة وجدت نفسي في دوامة سببها امرأة وثقت بها حدّ التماهي.

هل سميّة التي نطق بها الآن هي التي حدّثتني عنها وقلت بأنّها أنثاك التي لا يكررها الزمن وأنك تود التقدم لخطبتها؟

- نعم.. هي..

- وما الّذي حصل؟

- كنت أواعدها بشكل دوري وكنا نمارس الحب كما يمارسه غير المتزوجين إلى أن قاطعتني أسبوعا ثم إتّصل بي هذا الأحمق الذي لم أعرف حتى اسمه وهو يدّعي بأنه فرد من أسرتها كما تدّعي هي بأنها قد فقدت عذريتها لكن لم أفعل ولم أكن لأفعل ذلك ولو عرضت عليّ عرضا.

- وما العمل الآن؟ فعلا إنّ هاته الأمور خطيرة وتتطلب تريثا وحكمة، عبد القدوس كنت عفيفا فكيف ولجت هاته السفاهة، حتى إني حذّرتك، لكن تذكر جيدا أني هنا ويدي هي يدك ولا تخشى شيئا فربما هي مناورات نسائية بحتة وتذكر قول «رسول حمزتوف»: شيئان في الدنيا يستحقان المنازعات الكبيرة، وطن حنون وامرأة رائعة.

يضحك عبد القدوس أولا ثمّ يتبعه بابتسامة عريضة، هوّن الموقف قول الشاعر الداغستاني الكبير وأحالهما على نقاشات أخرى. بعد زوال الشك وفهم الأمروتقديره على أنه مجرد لعبة مبلورة من أجل هدف ماسيظهر خلال الأيام القادمة واستشهدا بقول الله عزوجل: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّمَا كَتَبَ اللّه لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللّه فَلْيَتَوَكَلْ الْمُؤْمِنُونْ»[1].

توجها إلى الجامعة، ينظُرُ إلى عبد القدوس مستغربا طيشه في سن التعقل، يتهجّم عليه الدهر كل مرة وبأشياء عجيبة تضيّع

1- التوبة (51).

العقل، صدق إذن مولانا جلال الدين الرومي حينما قال: العقل والدهاء والذكاء صناعة إبليس والعشق رأس مال أبينا آدم. يكاد يسأله في كل نظرة عن سبب هاته الأحداث ثم يتراجع لكونه يشعر بأنَّ السؤال سينحرف إلى القدر فهو الأولى بالمساءلة لا المُقدر عليه وهذا مالا يستسيغه.

اليوم تحديدا ستوضع للأحلام أسس جديدة تزيد من تشدد دوغماتية الحب وتفرضه، وربما ستنهار كل تلك الصروح لتظهر بشاعة الوهم القاسية، اللقاء مع هيام قريب، ساعة أو ساعتان لا أكثر ويقف وجها لوجه مع عمره المهرّب، فماذا سيقول وما الّذي سيحدث سؤالان إمتلأ بهما في صمته، صمت يشبه آخر الليل في رهبته وسكونه.

أمام مرآة مكسورة راح يجرب الحركات والأصوات إحتياطا وتدريبا فهو لم يختبر يوما الحديث مع امرأة تمسك الشريان القاعدي لقلبه، جرّب كل التوقعات دون أدنى قناعة، صوت أورفيوس[1] لن يكفي للحديث إلى هاته المرأة اللّوحة التي يمنحك النظر إليها إحساسا بأنّك أمام لوحة لبتروس باولوس تجسِّد الدهشة القصوى للفن الباروكي الذي يجمع بين العظمة واللاواقع.

وصل وقت المواجهة وحلّت ساعة الوقوف على الحافة بيدين باردتين لا تحملان إلاّ كومة من المشاعر تراكمت من لحظة الدهشة الأولى، كلما مدّ بصره رأى طيفها أمام القاعة رقم 05 غادر عبد القدوس كي يترك له الأفق كلّه فهو وحيد في فضاء الإنتظار

1- من الأبطال الخارقين في المتولوجية اليونانية.

والخوف، إقترب قليلا منها وهي الواقفة بأناقتها الشاهقة ووحدتها التي بلورت الهيبة والجمال.خشيّ أن تنادي عليه فلا إستعداد له لمواجهة خفقان قلبه أمامها وربّما تلعثم لسانه وضياع كلامه. دقائق من التأمل ثم دخل إلى حصّتها المخيفة وجلس آخر الصف، لم يستطع رفع عينيه فيها لدقائق أخرى وحينما جرّب ذلك قابلت حياءه بابتسامة جميلة في لحظة خاطفة حيث أزاحت بها كل ركام الخوف الذي أحاطه جرّاء معارك الأفكار التي غمرته. إذن جلُّ مايتوقع لا يقع حكم سليم أم تسرع بحت، فعلا الجو هلاميّ.

ساعة تمُر كبضع لحظات، الوقت يسرق بعضه البعض ليعلن إنتهاء الحصة، يزداد ضباب الخوف تكاثفا وكأنّ المواجهة قدر قاهر حيث لا هروب ولا إختيار.

نادت عليه، إسمه تجاهلته واكتفت بتلويحة متأخرة، تقدّم منها وقد نال الإرتباك منه، في لحظات حاول إستعادة كل مايحفظ من شعر الحماس لا شعر الغزل فلا وقت لمغازلتها في موقف يشبه الغزل فيه الإنتحار.

- أهلا أستاذة، كيف حالك؟

- أستاذة؟؟ أعتقد أنّي صرت أكبر بقليل.

- بل بكثير.

- عجيب؟ ماسر هذا التميز الذي حقّقته فيك والذي جعلك تتجرأ على كل القواعد محاولا كسر الحواجز بفتح قناة لا أجد لها مبررا ولا تفسيرا.

تشجّع وتقنّع وراح يسحب سيف الكلمات معتقدا بأن هذا الحوار لن يتكرر وأنّ كل ثانية تضيع هي خسارة من عمر القلب المصاب بها.

– ليس تميزا ماحققّته بل إنتصار على قلب مشمع بالكبرياء، فمذ رأيتك إنهارت كل البروتكولات وأصبح هذا القلب (يضع يده على قلبه) ميدانا للرّعشات والتذبذب.

– لكن كيف ولما أنا تحديدا، أنسيت أني أستاذتك؟

– فعلا، نسيت الأستاذية التي تجمعنا، لكن لم ولن أنس أنّك السيدة التي تجرني إلى الموت كمدا من فرط الشوق والإبتعاد.

– الموت؟ قد قيل لي بأنّك كاتب ولديك مستقبل في عالم الإبداع، فابقى بعيدا عن العدم أخشى عليك من الذي «حدث لتشارلز ديكنز» الذي ترك رواية «لغز دوين درود» وحيدة في بردها ومات عنها وحبرها لم يجفّ بعد.

– لا أخشى الموت، كل ما أخشاه هو أن أبقى قيد الموت وأنت تسرقين الحقيقة بالابتعاد.

يدور الحديث بينهما بكل الإنفعال والدهشة والأعين تتنافس في إطالة النظر وكأنّ الموقف مدبر فربما هو من ترتيب الصدفة أو القدر البطئ الذي عطّل أحلامه لأكثر من مرة.

قامت هيام من مكانها، لم تكن بحاجة إلى مراجعة أناقتها فدهشته كانت كافية لأن تمنحها عمرا آخر من الثقة بالنفس والتي قد تصل إلى غرور جارف يحملها على تجاهل الكون بما فيه.

سارت وإياه في الممر الهادئ الذي يفضي إلى دهليز كبير يقاوم الإنهيار، كانت الخطوات بطيئة والكلام مقتضب وكل الجماد منصت إلى دق القلوب المتسارعة، هو يعلم جيدا أنّ خروجه معها إلى فناء الكلية سيفتح مجالا ضخما للأسئلة الباهتة خصوصا وأنّ صوت مليكة منتشر بكل قواه.

إذن لم يبق إلاّ إستيقافها خلف البوابة الكبيرة التي تشبه حلمه الكبير وهشاشته.

- إذن هيام: لن أواصل تمثيل دور الأخرس أمام مشاهد تتطلب دواوينا من الكلام.. لن..

- وتتجرّأ وتناديني باسمي يالك من...

- حينما أقول أستاذة أشعر بأني أغتصب أنوثتك فملامحك لا يليق بها إلاّ إسمك الطازج الذي يتجدد بريقه في كل نظرة إليك، إسمك أكبر من كل شيء وهذا عذر كافٍ لإسقاط كل الألقاب الأكاديمية التي لا تعني للحب شيئا.

- كفاك غرورا وتنميقا، ملامحك وكلامك يظهر الخلفية السيكوباتية التى تتحدث منها وهذا الدور لا يليق بك ولا بي أيضا.

- لكــن...

قلّلت من إنفتاح مقلتيها بحركة تدل على سذاجة الطرق التي يحاول إقناعها بها لكن حبه لها كان أكبر بكثير من السذاجة وأعمق بقليل من لون عينيها الدّاكن، غادرت دون وداع، ترسم الكبرياء

بخطوات متسارعة، تركته وحيدا يصارع اللوم عن جرأة تحلى بها في أكبر اللحظات خوفا وروعة.

غادرت وتوارت بطريقة سينمائية واللّحاق بها مجازفة عظيمة فهي أستاذة مهما تمادى الحب وتلك الحشود هم الطلبة، فيهم الفضول مهما إرتفع سقف الحضارة، بأسلوب كايت وينسلت في فيلم التيتانيك الشهير الذي أسال دموع الملايين دون أن يدروا بأن المشاهد الأكثر درامية وجنونا كانت في حوض من أمتار قليلة فلا بحر ولا إنكسار، فكل شيء مدهش أمام هذا الفن الذي أخذ منحى تصاعدي منذ لويس لومبير وجورج مبليس إلى جايمس كامرون وغيره.

فاجأه دخول ناريمان إلى الكلية في وقت كان حضورها غير متوقع، كان بحاجة إلى البوح لكن أيُّ بوح ولمن هذا السر يقال، ناريمان التي كسرت الصمت كله لم تعد الحلوة التي تجيد الاستماع والعبث وضيّعت فلسفة إعتبار الحدث باللاحدث حينما صبّت إهتمامها عليه والذي صار غضبا وهبلا أنثويا جارفا.

عاد إلى البيت بعد خروج سري من الجامعة، لاشيء يبعث بالراحة وكل الأحداث الجميلة عكّرتها النهاية الباهتة التي شوّهت عظمة الكبرياء، كبرياء الحب والمواجهة الممزوج ببلاهة العاطفة المحتلة من امرأة لا تعرف حدّا للتوقف فيه.

سيعود.عزيمة اخرى ستقود جنونه إلى توغل آخر، لن يستسلم أبدا وهو المشع بها والمنصهر في حقيقتها الآسنة، قلبه المطرّز بأنوثتها لم يعد يملك حيزا للتفكير أو فسحة لممارسة الحرية، كل شيء يقوده نحوها، نحو نهاية غير واضحة المعالم في معركة متجددة

الوقائع ومتكاملة الأحداث مملوءة بالحرارة والبرودة المتضادان اللذان يسببان السهاد والوجع.

والده منزوي في أقصى الزوايا بعدا، يمارس إنكسار الشيخوخة وخرفها المقلق، لا شيء يعنيه سوى الصلاة والتسبيح وشيء من السياسة الدريئة التي أشبعها الحكام العرب بالدناءة والتفاهة.

واقع منهار أمام شعوب حالمة، الخراب عمّر بلاد الشام ونال من الحضارة البؤس، نخوة مهشّمة وحاضر على الهامش وتاريخ مضمخ بالعار لا يستحق الكتابة.الدماء والدموع أحرقت كل شيء وأصبح العويل يغطي السماء في بلاد الجمال. حجم الركام الانساني، حجم الموت في زمن هش، أصبح ينافس الأنقاض تعددا وسقوطا.

حينما إقترب من والده، لم يكن ذلك النكد المرسوم على وجهه قابلا للستر أو الإدعاء بأن لا شيء جعل ملامحه مرهقة، نظر والده مطولا في عينيه ثم مدّ يده نحو فراش مزركش كان بالقرب منه فسواه ودعاه إلى الجلوس.

- ما الذي يحدث معك ولدي؟ لست بخير لا تنكر ذلك.

- لا شيء أبي بعض التعب والورتين لا أكثر ولا أقل.

- يبدوا أنّك تخفي الكثير، إجعل اللّه في قلبك ولن يخذلك.

- معك حق أبي -سبحانه-.

- إذا حبّوك لا تخسّر مالك وإذا نكروك ريّح وارتاح[1].

1- إذا وقعت النساء في حبك، لا تبذر أموالك وإذا لم تفلح في دخول قلوبهنّ فارتح: مثل يدعوا إلى عدم الالحاح مع المرأة حينما ترفض رجلا ما.

فهم التلميح الأصيل الذي وجّهه والده إليه وهو في عمر الحكمة والنسيان، إبتسم وغادر مجلسه بكل ثقة ووقار، جلس في غرفة قصيّة وراح يستعيد ذلك الكلام المصقول، صعب أن تستنبط القصد الدقيق من أفواه الكبار، كل الكلام مشفر وجلّ الرسائل على قدر من العمق، أبّا عن جد تُتوارث الحِكم، رحم الله سيدي عبد الرحمان المجذوب الصوفي الذي ترك للأجيال ما تحتكم به وتستدل بضيائه، كم كان كلامه مندفعا نحو السلام وملامسا ليوميات الإنسان الساعي للكمال الأخلاقي والممارسة الإجتماعية السويّة ومن أجمل ماترك ورسّخ في خواطر الباحثين عن الحكمة تلك القصيدة الجميلة التي جاء فيها:

لاَ تْسَرَحْ حَتَى تلَجَمْ وَاعْقَدْ عُقْدَة صحيحَة
لاَ تتكَلَمْ حَتَى تخَمَمْ لاَ تعُوْد عَليك فْضيحَة
الحُوت يْعُومْ فوُقْ المَاء وهُومَ بلَا مَاء يعُومُوا
سُوق النسَاء سُوقْ مُطْيَارْ يَادَاخْل رُدْ بَالَكْ
يوَرِوْلَكْ من الرْبْحْ قْنْطَارْ وْيْخَسْرُوكْ في رَاسْ مَالَكْ
يَالي تْعَيَطْ قُدَامْ البَابْ عيّطَ وْكُونْ فَاهَمْ
مَايْفَسَدْ بِينْ الأحْبَابْ غيرْ النسَاءْ والدْرَاهَمْ
فَاعَلْ الخيرْ هَنيهْ بَالفَرْحْ وَالشُكْرْ دَيْمَة
وفَاعَلْ الشَرْ خَليهْ فَعْلَه يَرْجَعْ لَه غَريمَة

الوالد الشيّخ يتحدث من خلفية بائدة، قضى زمانها يوم كان الرجال يسرفون في صرف المال على نساء قد يولين الإهتمام وقد لا يفعلن، أما الآن فالأمور أصبحت نسبية وبعض الساعيات إلى زواج مختل يقدّمن كل الغالي لرجل قد يوفي بوعوده الكثيرة وقد لا يوفي فيترك خلفه حرائق الجيب والقلب.

لم تكن حكمة الوالد تنطبق على ماحدث ويحدث من إرتجاجات بينه وبين هيام، فلو أحبّته لن يفكر في المال فالقلب المرتعش سيمنحها الحياة كلها وإذا أنكرت حبه فلا راحة له أمام عظمة المشقّة التي لفّته مذ إحتمل الصمت في خضّم الضجيج العالي الذي سكنه من فرط تصارع الأفكار العاشقة.

بزغ فجر جديد بعد ليلة شاقّة تزاحمت فيها أشباح الإنتكاس على فراشه، غادر البيت متّجها إلى الجامعة، لم يعد له من الأمل مايكفي لجعله يدخل أبواب الكلية ببريق العشق المنتظر فكل شيء مؤجل إلى جنون آخر أو صدفة جميلة قد تغيّر الموازين.

شاع في ذلك الصباح خبر قاسي ومؤسف جاء فيه أن فتاة إنتحرت برميٍّ نفسها من الطابق الخامس، تملّك البنات الفضول وشرعن في صياغة الأحاديث والأكاذيب. تنطق الأولى فتقول بأنّ حبيبها الغالي قد خانها وأنّ هذا سبب كافٍ لركوب الموت، تقاطعها الأخرى بصوت أعلى لفّ حولها كلّ النظرات: الخيانة لا تجر إلى الإنتحار، أكيد قد تزوّج عليها أخرى فهي متزوجة منذ سنتين. تنفجر في وجهها وبكل قوة صاحبة الأرداف الثقيلة: ليست متزوجة ولا سبب يدعوا للإنتحار أكبر من فقدان البكارة الثمينة، إنّها دليل

العفّة وفقدانها يفرض الموت. صمتن جميعا أمام الفكرة الجريئة، كل الآراء تجمّدت أمام قبح التخمين وبلاهته. ثبت فيما بعد أن البنت لم تنتحر إنّما سقطت غفلة وسهوا حينما تناست عمرها وهي تلقي بمؤخرتها على حافة النافذة لتجد نفسها أو ليجدوها في بركة من الموت بأنفاس تقطّعت لثواني ثم إنكسرت إلى الأبد.

كل التحاليل سقطت حتى الإمام تراجع عن قراره الظالم بعد أن كاد لا يصلي عليها، ماتت بشغبها وبعذريتها كذلك التي شكّكت فيها بل أسقطتها إحدى المتشدقات. ليس مهما أن تموت وفي جوفها غشاء تافه بعد أن شهدت النساء كما الرجال على فسقها قد يقول الأكرمون أن لها أسبابها وقد يقول المتعصبون أنها عاهرة وعلى الله حسابها وبين القائلين الأوّلين والآخرين جدار الحرية فيصل وحساب الله وعقابه معسرّ وميّسر.

الأجواء ملبدّة، الروتين دثّر العقول والقلوب، الإنبهار أحاط الأفئدة، كل شيء في غير محله، واقع بدون إعراب «لا أحد يملك أحد إذن لا أحد يفقد أحد» صدقت يا باولو كويلو. جلس على مقعد مهترئ وواصل محدثا نفسه: هيام ليست لي أعلم، لم أكسبها لأفقدها ثم لا أحد يملك أحد إذن لم ولن، لكن إذا فقدت نفسي أمامها هل من خطر؟ يتساءل بعمق، يصاب بشدوه ثم يعود: فقدتها وإنتهى، في تجديد الفقدان أمل في الكسب، لا ليس كسبا، حظ لا ليس حظا، اللعنة..

إنقطعت الجعجعة، أمطار قدمت ورذاذها حجب الحب وعجّل بالتفكير في الهرب من برودته إلى أقرب مكان والإكتفاء بالنظر

إليه، كل جميل مباغت ومخيف فبين المطر وهيام شراكة البغتة والدهشة وقد تتحول هاته الأشياء باندفاعها إلى صدمة.

المطر يزداد غزارة والريّاح توجهه نحو أماكن الاختباء، يبحث عنه المطر وكأن أسرارا بينهما، ربما سر البحث عن الارتواء الذيّ ظلّ معلقا على حواف الشفة السفلى لهيام.

الجنس يتحكم في الطقس وتساقط الأمطار، ماذا لو صدّقنا هذا الغباء، كنا نملك حولك أوهاما صغيرة يا فيلهلم رايش[1] لكن اليوم وهمنا كبير وكبير جدا بحجم السماء.تتحكم الأمطار في الشهوة، فكرة مستساغة فالقلب يعطش في ليالي الشتاء والشتاء يعطي ويضفي على النشوة بريقا فلا تسلم نفس ولا طرف من الاحتواء والإحتراق لكن الشهوة تتحكم في المطر لا لسنا أكادميين لنعجز عن القول بفم ملئ قد كذبت يا سيدي، لو كان لها تصرف ويد لركّزت على رؤوسنا القيظ فيزهر سم الحمار فتتحقق نبؤة العامة وتحترق النساء.

قطع الفناء الرحب مهرولا، الخطوة الأخيرة كانت خطرة، كاد يهوي في بركة ماء لولا تلك الأعين المنتشرة المنتظرة التي مكّنته من الإمتناع عن السقوط بعسر. يتقاطر ماء، شعر مبلل وجسد مرتعش ما العمل؟ كطائر جريح يفرُّ إلى أوّل وكر دافئ، لجأ إلى حجرة بها مدفأة شبه باردة لكن برودتها أقل بقليل من الطقس لذا فاللجوء إليها مشروع.

دخلت مليكة خلفه تحمل هموم الدنيا وقهرها، فالنّكد أصبح زوجها الذي لا يفارقها مذ كسر الفقر أحلامها. راحت تخاصره

1- عالم اجتماع وباحث جنس نمساوي 1897 -1957.

بشكل آسر، يحمرّ ويصفّر لكنه يصمت، صمت اللذة واللافهم يطوقه، ينظر إليها باستفسار فلا تفهم ولا تدّعي الفهم، ثم ساد صوت الإرتعاش الذي وصل أقصاه.

مليكة رجل لم تكتب له الذكورة، لكنها رجل وربما أنثى متعددة، لا وصف. تبكي لتوافه الأمور وتثور أيضا، إذا أدمعت تنسيك بؤسك كي تلتّف حول بؤسها وتعتقد أنّها الجريحة الوحيدة في هذا العالم الملئ بالجرحى والمكسورين وإن ثارت بسقطها وفمها المشؤوم تُذهب عنك القول بأنها امرأة.

لم تلتق منذ أصبحت ناهدة برجل كباقي الرجال ولم تعرف من الحب إلاّ التفاصيل الخطيرة التي تفضي بها إلى أكثر البنات كفرا بالسر والستر فتصبح حكاية للضائقين دون أن تعرف. كلّهم دنجوانيون[1] يلهثون خلف خاصرتها في حين تلهث هي خلف قلب ممتلئ بالشعاع والنور وحين تمد يدها لذلك الضوء الباهر تكتشف أنه شعاع كباقي الأشعة لكن لا جوهر له.

تعادلت دموعها بصلاتها وحسرتها لكن لم تكن تبكي ككل الباكين على المغفرة ولم تطلب الصفح ولم ترجوا الله ككل الراجين بل كانت تطلب إستقامة حظها الذي كرّست له وصف «اللعين» كي يمنحها هذا الحظ وصفة تدّك بها قلبا فتمتلكه وتكون من الناجين الذين ماغرقوا حين تقلّبت أمواج العمر وعلت بلا يد مباركة تسحب ذلك العمر الهارب نحو بر فيه الأمان والسلام.

1- من الدنجوانية وهي الشخصية التي تحترف اغواء النساء واستمالتهن إلى الهوى.

تحدّثا بنفسية باردة كالجو الذي سرق الإبتسامة فلا الربيع حلّ ولا الشتاء إرتحل والغيم طال أمده وكأنّ السماء غاضبة، حديث متقطع، كلام متكاسل، مجرد هروب من الصمت المستفز ولا شيء يستحق الإعجاب، نصف ساعة من الحضور الباهت قطعها نداء العون الإداري الذي تشبّع مذلّة وشيتة[1] وأصبح خادما لكل مخدوم ولا تبرير له سوى السّعي إلى كسب ود مسؤوليه الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

- الأستاذة «بوصوف» تناديك، تنتظرك في قاعة الأساتذة.

نظر اليه مطولا.بوصوف؟؟

- نعم، تطلبك وهي تنتظرك في قاعة الأساتذة.

أبله وأحمق ليتك مانطقت بهذا أمام مليكة (قالها بينه وبين نفسه) حسنا أنا قادم، مليكة نلتقي لاحقا عزيزتي.

- إذهب مع السلامة واحذر أن تخطئ.

- أيُّ خطأ.. مجنونة.

دقّتان على الباب، فتحه، وجدها مبتسمة تعبث بحبات من الفول السوداني وقلم أحمر يلامس الشفة السفلى منها. رحّبت به مختصرة ودعته إلى الجلوس.

راح يدقق في سحرها، لاشئ يشبه باقي الموجودات في الدنيا الشاسعة، شامخة وسامقة في رحاب الفتنة والسحر، حفنة من

1- مصطلح يطلق في الجزائر على كل من يقدم خدمات إضافية ومجانية لشخص ما من أجل كسب وده ويوصف به بشكل أكبر من يفعل ذلك مع المسؤولين وأصحاب السلطة.

الضوء لا أقل تدعوه في كل حركة إلى الإنبهار بها أكثر، هي لا تتشابه مع الأنوثة وربما هي الأنوثة مادامت كل تفاصيلها خارجة عن العادي وكل مقوماتها ثائرة وإلى الأبد عن المألوف.

في شدوهه الرقيق تذكّر إيدوارد جيبون[1] وهو يرفع على ركبتيه ويستسمح فتاة في تأدية تحية عبادية طقوسية لجمالها الذي دوّخه وهو في سن الهرم، فكيف التعامل وما الواجب أمام الإنكار العظيم لحواسه وشهادتها بأنّ كل الذي أمامها آية وإعجاز في فن الخلق.

- كيف حالك، هل أنت بخير؟

- بأحسن حال، شكرا..

- هيام، قلها ولا حاجز.

- شكرا لك، هذا من كرمك.

- في حديثنا السابق، مددت يدك فاتحا نحو طابو جديد وتجرّأت على القول بأنّ لك مشاعرا إتجاهي بل وغازلتني. قد علِمتُ من قبل أن كسر الطابوهات عادتك بداية من كتابك «عاصفة العاطفة» الذي سيطرت لغة الجسد وأحاديث الأفرشة على صفحاته وصولا إلىّ. ما الّذي تعتقده يا أمير الشعراء وكاتِب الكُتّاب. ألا تفكر بأنك قد تجر علينا الويلات بسبب هذا التهور والتطاول.

بأعين متعبة وأنفاس مختنقة، راح يحدق فيها تارة وينظر إلى وسط القاعة تارة أخرى وإلى عمود مهترئ وإلى زوايا إمتلأت بالأشياء القديمة التي تشبه الأنقاض إلى حدّ بعيد. إسترسلت لحد

1- Edward giffon مؤرخ إنجليزي 1737-1794.

كبير وأحاطت بما يحتاج إلى الكلام وبما لا يحتاج ولم تتوقف عن رش قلبه بالنار والحجارة إلاّ حينما عاد إلى محياها ممتلء الأعين ومنكسر النظرات.

- أجبني لم الصمت؟

- إذا بدالك عن غفلة أنّ صراحتي واندفاعي نحوك كسر لطابوه فيجب أن توقني عن صدق وحقيقة أن ردم الحب وتدثيره بالخوف والرعب هو الطابو الذي يحتاج إلى الكسر، لم أطلب منك إحتضاني ولم أطلب منك القول بأنني المهدي المنتظر. أحبك وهذا كل ما في الأمر، يدي التي امتدّت إليك بكل شوق ماكانت لتحمل إليك الخداع فهي بيضاء كالقلب الذي انمحى من تتالي الهزّات والضربات الموجعة إني...

- سأقول لك..

- لن تقولِ شيئا لأنّ الكلام الذي يفور بداخلي لن يكفيه الدهّر للخروج من النور إلى الهلامية التي غمَرتني بها، ألم تجرِّبي يوما فتح أبواب قلبك للضياء، ألا تعرفين معنى أن يمدّ إنسان طول قدميه لشيء فلا يحصل عليه وفوق ذلك يسقط وفوق السقوط يعجز عن النهوض لأنّ الإنهيار كان عظيما جدا.

صمَتَ ولم تصمُت نظراته الثاقبة التي تغطي ضجيجا ضخما، لم تتكلم وظلّت تنظر إليه بحاجب دقيق يعتلي على الآخر. أطلق نفسا عميقا وواصل:

- الحب حكيم والكراهية حمقاء هذا ماجاء به برتراند راسل، لما نبرتك كانت حادّة لماذا جعلتني أشعر بحقد واستفزاز وأنا الذي لم أقدم لك سوى الورود والأزهار المسقية بسيل السهر والتفكير لما؟

– يبدوا أنّك تحاضرني، أو تعتقد أني أعشق الورديات والغراميات الباهتة، مثقف حسنا، هل تعرف قول كونفشيوس عن العزيمة. أكيد لا، أنت مندفع ومصّر وعازم لكن العزيمة بدون معرفة هي ظلال الفوضى.

ألم تقل في كتاب عاصفة العاطفة أن الحب يجعلك تقدم لنفسك الحجج والبراهين المقنعة وغير المقنعة التي تخدم مايمليه عليك قلبك المتميم. إذن ها أنت تقدم أشياء فوضوية، عنتريات بالية. تطلب المستحيل. بائس أن يورطك كتابك فيما لا تشتهيه.

استهترت وقلت بأن هذا الكتاب سينام في صدور النساء قد تحققّ إستهتاري وجلب عليَّ ماجلب (بينه وبين نفسه).

– أنا لا أحاضرك، خطاب المثقف أصبح غريبا واستثنائيا وحين صرّح عدنان ابراهيم قائلا بأنّ ناقدتنا قد اغتيلت لم يُخطئ. المرأة تجد رسالتها ودعوتها الأسمى في أن تهب نفسها للرجل الذي تبحث فيه عن الله حيث يختلط الحب الالهي والبشري والذي هو ليس فقط إعلاء للحب البشري بل هو تحريك جزء حقيقي نحو المطلق. هكذا تحدّثت سيمون دي بفوار. أعتذر..

– انتظر لديَّ ما أقوله لك..

خرج دون انتظار لحديث سيخرج عن ذائقته وإعجابه، لم تلحق به واكتفت بالوقوف. أمّا هو فهرول في الدهليز خشية أن تخرج وراءه أو تستوقفه وهذا مالا يستطيع ردّه. رأى أن الحديقة هي المكان الوحيد الذي قد يحتوي إنطفاءه المفاجئ وبأنّ المقعد الذي تغطّى بالأشجار هو الأنسب لتخفيف حدّة الرعشة التي أصيب بها في أكثر اللحظات جمالا وهبلا.

جلس منكسرا يذم قلبه الذي رمى به في شعاع مصدره محرق ألا وهو النار، نار متوهجة هاته المرأة الساحرة التي لا يعرف كبرياؤها السكون ولا الإستقرار، لم يجد صوته فسحة لينادي بأعلى طبقة أنّه متعب وأنّها قد أرهقت قلبه الذي طال إنتظاره على حافة الهاوية. غمام الخوف كان أكبر من مساحة الفرح وأيّ إعلان خاطئ عن هذا الحب سيكون بلا شك السقوط الحر في فجوات الألم والوراثة الفعلية للخيبة والوجع.

جبروت الصمت لفّ المكان ومشاعر التيه والوحدة طغت. إنسحبت طفولة ذلك القلب الذي طالما تجاهل نور الحب وحاول تفاديه وكبر فجأة ليجد نفسه مليئا ومحاطا بالبياض والسواد في أكثر اللحظات حميمية.

كل الأوهام تعانقه في أكبر شدوه مسّه منذ عرف تاريخه، كم تهرّب الصبر منه وهو يجري من خلفه وينادي: تعال، تعال أيّها الصبر وعانقني كي يوقف القلب بكاءه ولو قليلا.

ما أوسع الفضاء بوجعه الرهيب حين ينفتح أمام القلوب البائسة، عسير تصحر المشاعر التي كانت تنتظر أن تخضرّ. لا جدوى من ركوع القلب فلن يحاول أحد رفعه من ذلك الركوع الذي قد يكون الأخير وآخرة القلب هي الصمت كمدا وتحمل الإنهيار بدون صوت مزلزل.

لست وحيدا ياولدي، هكذا قالت تلك العجوز العابرة ككل العابرين الذين لم يتلقوا وخزة من قلوبهم تشير إلى وجود رجل ينتظر أذنا تسمع عويل الفؤاد في صحراء هيام.

جلست جامعة لأثوابها التي لا يزال عبق الثورة عالقا بها. جميلات تلك النسوة بطهر قلوبهن وطيبتهن حدّ السذاجة. حدّقت في عينيه مطولا ولعنت الدنيا وأضافت إليها فرنسا نكاية وفخرا فلا تزال الرغبة حارقة في سب الاستعمار الذي سرق شباب جيل عاش نصف عمره الجميل في الظلام ونصفه المنكسر في الضوء فارتسمت على ملامح جل أفراده معالم التعب وتجاعيد الزمن المر.

إبتسم مدّ يده إلى محفظته باحثا عن شيء، قارورة مسك طال تخزينها وما أكثر العطور المخزنة. أمسك يد المرأة الطيّبة وقال: هي لك يا يّما تعطّري بها عند كل صلاة فريح المسك طيّب كأيامكم الجميلة التي سمعنا عنها الكثير.

– يا اه ياوليدي، كان الراجل راجل والمراة امرأة. اليوم تبدلت الألوان.

صمت أمام هذا التعبير البسيط الذي يحمل عفّة ذلك الجيل ورزانته لكن المعنى يبدوا كبيرا بحجم خمائل أرض الشهداء الطيّبة، فلم يصبح كل الرجال رجالا ولا النساء نساء مذ إنكسرت قيّم كانت نقطة الالتقاء ومجمع الأخيار.

الحّت على أنه مصاب بمس من الود وأن رغبته في الزواج شديدة وفسّرت ذلك بقروب الصيف. تفسير جميل لكن مادلالاته، لا يعلم بذلك.هاته الجدّة لا تعرف رولان بارت ولم تسمع عنه شيئا من قبل ولا تبدوا على لغتها المعرفة والتّمكن لتقرأ كتاب الباه[1] الذي

1– رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه كتاب للرازي ومن أشهر كتب الأدب العربي القديم.

عرّف الأفرشة بتشعبها وبيّن منافع الزواج والنكاح وطقوسه العطرة والقذرة ومع ذلك تنبّه إلى ضرورة الزواج، إبتسم وقال مفسرا: ياجدّتي، إنّ الوقت مبكر على الزواج كما أنَّ الظروف صعبة.

– من حقك ياوليدي هذا الجيل المكشوف وقتوا صعيب وزيد، قبل ماتخطب وتناسب شاور واسأل وفكر وحاسب.

– ماشي ساهل يا يِّما.

– آه بمالك وفلوسك بنت الأكابر عروسك وزيد باين راك معيّن واحدة.

– لي نبغيها يا يِّما راها أكثر مني في العمر ومنيش عارف كيفاش؟

تضع يدها على حنكها، تغلّب الشفة العليا على السفلى وتحرك رأسها يمينا وشمالا: ياا بعد الصبر وطول العزوبية راح أتزوج كركوبية[1].

يضحك من وصف وحكمة المرأة المسنة التي أزاحت عنه القليل من التعب وأخرجته من بوتقة السكون. ضحكت لضحكته، فكّر قليلا وأعطى لذاكرته فرصة كي تستعيد شيئا من قاموس الجدة التي سرقها الموت في أكثر لحظاتها ضحكا واستهتارا.

– لكن يايِّما وبلاشك تعرفي المثل لي يقول: حب حبيبتك حب يالوكان عبد ولّ دب.

– لا لا ياوليدي أنت زين ولازملك قمرة ناس بكري قالوا الكلام لمليح بصح عندهم ماخرفوا.

ابتسم عميقا وضحك أمام حكمة وسخرية هاته الجدّة الطيّبة. فتحت النار على بنات الجينز والأظافر الطويلة وأبدت غضبا كبيرا

1– عجوز هرمة.

على كنّاتها العاجزات عن كل شيء وهي تكرر جملتها المسكونة بالحسرة والأسف (لخلا يا وليدي خاليين، لا نفع فيهم).

حوار متميز في ظلال الماضي وجبروت الحاضر، صدق من قال جالس طفلا لا يعرف عن متاهات الدنيا شيئا أو طاعنا في السن إنتهى من كل شيء ومجالسهما تغسل القلب من نكده وسخطه على حياة منتهية نهرول فيها نحو العدم.

غادرت تلك الأم مبتهجة نحو السكن الوظيفي المفتوح على الجامعة وتركت عطرها العبق منتشرا حيث انتشى به طيلة النهار.

أسبوع من الغياب عن الجامعة، عزلة في البيت، كل النصوص تتشابه ولا شيء يفجر السكون ولاشيء يجعل ضجيجها يسكن أيضا هذا هو مصير كل عاشق عجز عن مد حبائل الوصال. يطارده إختناق يضيّق عليه الحياة بما رحبت.

تكرّرت زيارات عبد القدوس، الهاتف يرنّ كل ساعة والسؤال عنه مستمر، آخر اتصال كان منها، هيام التي قست على مشاعره، إتصالها كان مفاجئا ومدهشا، تشعّب تفكيره وتداخل قبل أن يرد على مكالمتها الثالثة فالأولى والثانية ضاعتا من فرط الدهشة واللافهم.

إستفسرت عن غيابه المتعمد، هي تعرف جيّدا أنّ عقله قد ظلّ في غوايتها لكنّها لا تصدق شيئا مما تعرفه وتضيّق على قلبها الذي يطرقه بكل الطرق المستعصية فقط كي لا يمسها شوقه المثقل بألم الإنتظار. تؤمن بالحب وتخافه، تخاف رماده الأسود وإنهياراته القاسية لأنها جرّبت مرارة السقوط أكثر من مرة. ينهشها الحنين

إلى أيّامها المزهرة لكنها لا تذوب في ذلك الحنين العابر لأنّ الجدران التي تحيطها تكسر الأعناق ولا تتيح رؤية النور مهما إشتدّ توهجه في تلك السماء البهيجة.

إنتزعت منه وعدا بالعودة بعدما أدركت بأنه مكسور بأحلامه التي شيّدها على حياتها والتي أصبحت رمادية تماما. لم تمنح له الحق في تسميتها بالقسوة الكبيرة أو الوهم العريض فقد رمته بالقليل من الرذاذ كي لا تذبل وردة الحب العظيمة التي جاء بها محمولة بين أحضانه.

الحقيقة قاسية لكن بالإمكان أن نحبها وهي تجعل من يحبوننا أحرارا[1] هكذا تكلّم جورج سانتايانا حين بحث عن ماهية الحقيقة وجوهرها. حبه على قدر كبير من الهشاشة والشفاء من عقمه محدود الأمل، بقدر هرولته نحوها تتجّبر في غلق الأبواب مما جعل الجو سديما أكثر مما ينبغي، سرادق بعيدة المنال يحويها مذ إنبهر بها أمام حواسها وانتفض من السدّة التي كانت تحميه. قلبه المشتعل كسراج مكسور لم يعد له مايقاوم به نسائمها ولا شيء ينتصر به أمام عنفوان السجال.

في خندقه الكبير إستعاد كل المحطّات القاسية التي أسدَل الزمن ستائره فوقها وذللّ النسيان آلامها.تذكر ذات مساء حبيبته التي سُرقت منه وهو ينظر بعينين فارغتين يحفهما جو قاحل شديد الظلم والبؤس.

1- George santayana : ercivain et philosophe americain 1863-1952.

«عواطف» لم تكن أبدا ككل النساء سيفها يقعقع بداخله كلّما فكر في النسيان.حبٌّ تجاوز جمالية الواقع إلى تشوه الخوف من الخسران.كل مافيها يقتلعه ككماشة قاسية إلى أن وقع في كمين الهيام الأبدي.

ضربة قدر موجعة إكتوى بها وهو يخرج من لفائف الحب مهزوما، فكيف لرجل أن يخسر امرأة أعلنت مئات المرات أنها تتعرّق به وأنها تشتهي أكل التراب الذي يمر فوقه، لم يكن ذلك الحب مشاعا لكنها صرّحت أكثر من مرة أنّها تتحدّى كلَّ نساء الكون أن يمنحنه ربع أرخبيل من محيط الحب العظيم الذي جعلت منه مشاربا لرجولته الساحرة.

حينما إختطفها الموت شعر بأنّ النور يرتجف في عمق الشمس وأنّ ضفافها العالية لم تهاجر نحو البياض مصادفة، إنّما تعمدت السفر نحو الملائكة مقتا لهذا الكوكب الأسود.

لم تكن تخشى الموت، تستفسر مرارا عن وجود جنّة أخرى أعظم من جنة الوقوف بين يديه وشم رائحة جسده المزلزلة، شعر بحجم المغامرة الكبيرة والخطر الدّاهم يوم ذرفت دموعا حارّة وكفرت بكل شيء وأفتت كرجل دين أنّ عشقه حلال وطوّقته بنزق كبير وقبضت على كتفيه وقالت: أنت جنّتي، جنّتي، جنّتي. إنطفأت كل النزعات في تلك اللّحظة المبهرة ونسي أنَّ العالم مليء بالنساء فقد كان مملوءا بها حدّ الفيضان، رونق العشق كان شهيّا كشهوة الركوة التي نضج على نورها الرهيف، رقّق كلّ المصاعب التي أحاطت حبهما إلاّ رشاقة الموت فقد كانت مباغتة ومفجعة لحد لا يوصف.

قلبه الذي تحوّل إلى مرمدة لم يجد يدا أو شيئا يغلق عليه حين علا نحيبه كأم ثكلى أفقدتها الحرب حياة أكبادها.سؤدد الحب فقد الرفعة والهمة مذ ماتت «عواطف» حيث غرق في فقر القلب وهشاشة المشاعر والّذي ساغ لاحقا رفضه لكل ود وحب وهروبه المستمر من فخاخ النساء.

هيام بسحرها المختلف وفوقيتها التي جعلت لها خصوصية جعلته ينسل من السكرتاريوم الذي خصّ به قلبه ليخرج إلى ضوئها الآسر البعيد بسكونه عن فوضى الواقع ورتابة الحقيقة.

يرى فيها الأمل الأوحد الذي سيصب الطهارة والحب على الدُمل التي قلّصت من مساحة قلبه.

(07)

«إخْدِمُوا غَرَابَتَكُمْ»

-فيلسوف مجهول-

عاد إلى الجامعة، تغيّرت الفصول وتعددّت ألوان الطبيعة وصارت الأيام مشمسة.رونق الربيع الجميل غطّى الحزن الطويل الذي غمر المساحات في فصل الشتاء مع أن أجمل المشاعرعزفت في لياليه، إكتملت روايته، معجزة النشر قد تتحقق وقد تنسى. كثيرهو الأدب الذي مات في الأوراق وبين الرفوف لذا فشلت العديد من السياسات وماتت ثقافات.أكتبوا بأهدابكم وأظافركم إذا لم تطعكم أقلامكم هكذا أوصى شيخ المؤرخين الجزائريين[1] هذا الجيل الجديد الذي إستشعر تيهه في عديد المناسبات والمواقف.

مليكة تزوّجت، هكذا قالوا، لا معلومة ولا تفاصيل مذ غاب عن الجامعة مثلما غابت. تعجّب حينما نقلت له ناريمان الخبر الغريب فلم يسمع أحد بفرحها لكنّ الجميع سمع بحزنها، عين الحسود لا

1- أبو القاسم سعد الله (رحمه الله).

تسود ربما هذا مرجعها فهي خرافيّة إلى حدّ ما. ناريمان على يمينه في الحديقة المعبد تكاد تبكي حرقة وأفشلت زواجها بحكم مسبق. صديقتها لكن ليس لحد الفرح لفرحها، رغبته في الضحك زادت، راح يحفر عميقا لتلك القهقهة التي تود الخروج لكن لم يفلح، عادت من غضبها منذ ساعات والضحك في قمة حرقتها ونكدها قد يغيّبها إلى الأبد.لم تغفر له بعد حادثة المطعم والشعر المُخطئ في العنوان ولا تزال غاضبة تحاول ستر غليانها الداخلي بافتعال مواضيع متفرقه.قد يكون لشططها سبب آخر غير زواج مليكة والغيرة منها، قد يكون الغضب القديم من توجيه شعر لها وهو ليس لها لكن أن تفهم امرأة فهذا الأمر مستعصي وبعيد فحتى سقراط وشيوخيّته في الفلسفة بقي عاجزا عن التفسير وحين قال تهكما أن كل مايعرفه هو أنه لا يعرف شيء فان هذا التهكم قد أصبح واقعا وحقيقة فبعد شربه للسم وبداية سريان الموت فيه تجمع تلاميذه حوله راغبين في سماع كلمته الأخيرة بعدما رفض كل مبادرات النجاة التي عرضت عليه.طرح عليه «كرتو» تلميذه النجيب سؤالا جاء فيه: يامعلمي الأول والأخير بعد أن عرفت كل شيء في الحياة ظاهرها وباطنها هل هناك مِن شيء أعجزك ولم تستطع فهمه؟ فقال سقراط بكامل الحيرة والحزن أنه قد عرف الكثير إلاّ: ماذا تريد المرأة.

سؤال كبير وقد يكون رهيبا أعجز سقراط أولا وسيغموند فرويد ثانيا ونزار قباني الشاعر الكبير ثالثا والذي قضى خمسين عاما في الكتابة عن النساء وكذلك كتب: قرأت كتاب الأنوثة حرفا حرفا ومازلت أجهل مايدور في رأس النساء.

صبر وانفجر مقهقها في وجهها، لملمت أغراضها وغادرت.إهتلع من غضبها فهي آخر أهزوجة في زمانه ولن يجد بعدها رفيقا ملائما من النساء، لحق بها.أمسك ذراعها الأيمن سحبه فتوقفت، أعادها إلى المكان الأول فتراجعت وعادت.

إقترب منها قليلا، أوتد أطرافه على ساعديها فاذا بالنشوة تصرخ، الشهوة الدّاعكة تفشت فيها، نسيا الأمام والخلف وغرقا في تشيطن فظيع، سرقت شفاهه بكل صخب، تئن، تجن ثم تتصاغر بعد أن تشيط.

الشائب يُصبح غرّا أمام هاته الأنوثة الذائبة ولا شيء يدفع بالرجاحة في خضم التلاشي الكبير لكن العظمة الراهنة سيئة عند الباحث عن الأبد فلا شيء يجمع القلوب والشفاه إلاّ لحظة عابرة وزاهدة كالعمر المتشظي والمتصارخ على بعضه البعض.

إعتاد ككل الواقعيين نقل الأيام إلى نصوص وتحنيط الواقع بالكتابة.يدرك أن بعض الواقع مصيبة ونقل المصائب دهك للمحاسن فمالّذي سيكتبه، محتارهو. يتذكّر كتاب «سوف أذهب لأبصق فوق قبوركم «[1] الذي نشر تحت إسم مستعار هو» فيرنون سوليفان» ليس هذا المهم. الأهم هو العسكري الذي قتل عشيقته وترك قرب جثتها كتاب فيان على صفحة يقتل فيها بطل الكتاب عشيقته على نفس الطريقة فاتهم بوريس فيان أنه مرتكب الجريمة، حاول إنكار الاسم المستعار فدخل في دوامة سوداء لم يتخلّص منها إلاّ بعد سنوات طويلة.

1- كتاب لبوريس فيان.

إنّ الكتابة أخطر بقليل مما يتوقع البعض وأكبر بكثير من إستسهال البعض الآخر، هي حياة وموت، يمكن أن يحيا كاتب بعشر كتب ويمكن أن يموت بنصف سطر، «دَعُونَا نَكْتُب كَيّ لاَ نَمُوت» هكذا قالت زهور ونيسي ذات لقاء لم يسألها أحد وللأسف، هل نكتب فقط كي لا نموت أم لنحيي أشياء كان من المفترض أن تموت.

يبدوا على ناريمان حبور كبير وكأنّها قد قرأت فن القبلات لوليام كاني أو تدرّبت على أيدي الحب من يدري، لا أحد يعلم فللمرأة أسرارها العميقة ومواطن الغموض الدفينة.عشق سَكنهُ، امرأة عطوف سرقت عشقه وامرأة من كبر قتلته برويّة، أفلحت نساء زوربا في سرقته أحيانا كما نجحت جاريات «رجوع الشيخ على صباه في القوّة على الباه» في إمتصاص علله وإبتلاع الضجر الليلي.

أسبوع آخر من الدراسة، الشمس تزيد حرارة في كل شروق، قلبه صامت ومملوء مقيّد وحُر وبينهما تضيق الفسحة، ضاق الحال يا هيام هكذا يقول في أشد المواقف نكدا.

يرد على نفسه فيقول:

إلاَ ضَاقْ الحَالْ مَاتْفِيدْ أَحْوَالْ

نَسَكْنُوا الخَيَالْ وَلَ نَرَكْبُوا الهْبَالْ

نعِيشُوا المُحَالْ وَلَ نتوَهْمُوا الأحوَالْ

نذُوقُوا الأغْلاَلْ وَلَ نْغَيرُوا الأشْكَالْ[1].

1- أغنية شهيرة لفرقة جيل جيلالة المغربية التي تأسست سنة 1972.

هكذا الحياة اذن يا غاليتي. أف لهذا القلب، حملق جيدا، رتب أفكاره، أعاد النظر، برّر إقدامه لنفسه وسحب هاتفه وكتب:

ces sentiments sont moudit. un peut d'interet ne tue pas.[1]

رسالة قصيرة تنتظر جوابا، مرّة أخرى يتساءل إذا كان هاتفه سيصمت كثيرا أم سيصدح بعد لحظات، قلبه جبان أمام الإنتظار الطويل وعاجز وضعيف أمام صمتها إن اشتهته.

ساعات طويلة من الشمس، لم ترد بشيء، غطى الظلام الفرح في الوجوه وكسر الإنتظار. يأس كريه تسلل إلى قلبه إلى أن سطع نور الهاتف.

رسالة نصيّة.إفتح.

Young boy. i don't deny that you have sacceeded to moving the feelings dormants in me but sorry some things are beyoud me and talking about them open big doors for great maze.[2]

تفكير طويل قاده نحو الغرق فيها لنصف ساعة. قرّر أن يرد لها برودتها بقليل من الرذاذ الذي لن يحدث شيئا فكتب:

No need to appologize. it is true that my heart is filled by you but he is ready to dry forever if this will bring you happiness always. with my love.[3]

1- ملعونة هذه العاطفة، قليل من الإهتمام لا يقتل.

2- صغيري لا أنكر أنك نجحت في تحريك مشاعري الخامدة لكن عذرا بعض الأمور تتجاوزني والخوض فيها قد يفتح أبواب متاهات عظيمة.

3- لا حاجة لأن تعتذري، صحيح أن قلبي ممتلئ بك لكنه مستعد لأن يجف والى الأبد اذا كان جفافه يحقق لك السعادة.محبتي دوما.

لم يكن صادقا ولو قليلا فيما كتب، فعمره المهرب نحوها سيل تجاوز الجفاف، إنّه الحب مرارا وتكرارا هو الحب بحلاوته وقسوته.

تذكّر فلّة الطفلة الجميلة التي شبّهت حبها له بلحظات الطفولة الساحرة يوم كانت تجمع الرمال على حافة الشاطئ لتجعل منها تماثيلا وقلاعا فتسرقها منها الأمواج الممتدة قبل وميض الفرح، كذلك هيام المفرطة في السحر، يبتسم قلبها فيوهمه بالحب ثم تنكّد بكلامها فتمحي كل التوقعات.

رفع القلم سحب ورقة من دفتر وشرع يدون:

من أكون أمام أنثى تشبهك، أنا لاشيء حيث كل شيء ينصهر أمام عبقرية الجمال ودهشة الملامح المضيئة، يا سيّدتي وسيدتهن على هاته الكواكب كل اللّعنات إذا لم تنحني دوخة ورعشة عند قدميك، لتكن كل الرسائل شفافة كشفاهك التي خلقت من نور. اسألك؟ لماذا جمعت كل شيء وماتركت لهن شئ، عجبا صدمت عروش النساء حين خرجت إلى الكون رذاذا فلتسامحك النساء عن إغتصاب حقهن في الحسن.

دسّ القصاصة في جيبه ونام. كلُّ أحلام الحب أحاطته. حفّته ورديات كثيرة إفتقدها في النور فسكنها في ظلام الليل الحالك.

توجه صباحا إلى الكلية جامعا كلّ أوصاف الأناقة مستعدا لما قد يواجهه من امرأة لم يفهم بعد أسرارها الكثيرة، الجو ربيعي وكلُّ الأشياء المحطية تنبض بالحياة والحيوية.

النساء متزينات بألوان الورود والرجال مشمرون يستبقون أوان الصيف، تشمير النساء وإظهار المفاتن لا يقلق أحدا ورفع الرجال للسراويل وارتداء التبابين يشكك في الرجولة. إختلطت المفاهيم.

دخل الدهليز المتشبع بالاهتراء. وجد هيام بالقرب من القاعة 06، شعر ببعض الحياء وهو يمرُّ عليها، لم يُسلم عليها. ولم يغرزعينيه في مفاتنها كما تعود فالجو بينهما حميمي قليلا ومكهرب كثيرا.

حينما تجاوزها ببضع خطوات، نادت: ياطالب، ياطالب.

تعمّدت عدم تلفظ اسمه. حاجز الكبرياء لا يزال كبيرا.

عاد إليها، دعته إلى دخول الحجرة، جلسا ينظران إلى بعضهما البعض لم يتكلم ولم يحاول الكلام فساد السكون لدقائق إلى أن قالت:

- هل تصديقك ضرورة؟ وإذا فعلت ما الّذي سأجنيه من حب مستحيل.

- ستجنين الحياة وكلّ شيء قد يستحيل إلاّ الحب فلا تعرفُ الإستحالة إليه طريقا.

- وهل يوجد الحب وسط كل هاته الفوضى والتناقضات؟

- أما التناقضات فسببها إنحطاط الذوق وإختلاط الفضيلة بالرذيلة وذلك يرجع إلى غياب الشعر والفوضى تمحيها العواطف وأجمل عاطفة هي الحب.

- تريد القول بأنّ الشعر قادر على تخليص العالم من الشر وإحلال الفضيلة.

- غيابُ الشعر جرَّ الذوق العام إلى الحضيض وإنحطاط الذوق يعجّل بظهور ملامح التدني. الشعر هو الموسوعة الروحية الكبيرة للبشرية كافّة.

- ما الذّي سافعله معك لو وافقت على التحدّث إليك والتواصل معك.

- سنُغيّب الحزن إلى أجل غير مسمى.

- وإن أحببتك؟

- سأبكي لأني ماعرفت الحبّ قبلك ثم أفرح وأفرح وأقفز كالأطفال وبعدها لن أسعَ إلى شيء في الحياة بقدر ماسأسعى لأن تكوني مبتسمة ولو في عزِّ الظلام.

- تبالغ...

- هل أقسم بعينيك؟

- أقسم بالله..

- لن أقسم.

- إذن هراء وكذب.

- إذا أقسمت بالله بأني أحبك فأنا أكبر كاذب.

- أتسخر مني؟؟؟

- لا، لأن مابداخلي أكبر من الحب والحلف على الحب كذبة كبيرة لو مارستها سأكون خائنا ممتازا. إذا وجدت في لغات العالم الحديثة والقديمة مايترجم أحاسيسي سأختار أجمل المفردات المعبرة وأقسم عليها.

– كلاسيكي هذا الكلام وسمعته في أفلام شاه روخ وغيره.

– تشابهت أحاديث الحب لكن المشاعر لا تتشابه وكلّ كلام يجب أن يخضع للتجربة وأيُّ حديث خارج الفعل محض سراب.

– تقترح أن أجرب حبّك لي، ماذا لو فشلت، هل سيكون لي الحق في تجاوزك حدّ النسيان.

– الفشل سيجعلني أغادر بلاطك ولو إحترق الفؤاد والقلب. لامكان في مملكة الحب إلاّ لباسل وغيره غرّار راضي بفتات الحب، الحب حياة جديدة وفقدانها موت من نوع خاص، أن تحب فمعنى ذلك أنّك قد أصبحت إنسانا.

– ماعلاقة الأدب والحب بالموت؟

– علاقة ودية لحد ما، الأدب يجمع الأشياء الميتة في الإنسان فيحتويها بمساحته غير المحدودة والحب يبعث الحياة في الأدب، الأديب والمحب لا يخشيان الموت، لهم قدرة فوق العادة على مجابهته، أتذكّر جيدا قصيدة بودلر التي جاء فيها:

فِي أَرْضٍ شَحمَة مَليئَة بِالقَوَاقِعْ
أَبْغِي أَنْ أَحْفِرَ بِنَفْسِي لَحْدًا عَمِيقًا
حَيْثُ يُمْكِنُنِي عِنْدَمَا أَشَاءُ
أَنْ أَضَعَ عِظَامِي الهَرِمَة
وَأَنَامُ فِي النِسْيَانِ كَالقِرْشِ فِي المَوْجْ

أَكْرَهُ الوَصَايَا أَكْرَهُ القُبُورَ

بَدَلاً مِنْ إِسْتِجْدَاء دَمْعَة مِنْ هَذَا العَالَم [1]

وَأَنَا حَي أُفَضلَ أَنْ أَدْعُوا الغِرْبَانَ

لِتُدْمِي كُلَّ أَطْرَاف هَيْكَلِي النَجِسْ

أيّتها الديدان يا رفاقا سود بلا أذن ولا عيون

أيّتهَا الفَيْلَسُوفَاتُ المَاجِنَات يَا بَنَاتَ العُفُونَة

عَبْرَ خَرَابِي تَوَغَلْنَ بِلاَ تَأنيب ضَمِيرْ

وَقُلْنَ لِي أَهُنَاكَ عَذَاب آخَرْ يَنْتَظِرُ هَذَا الجَسَدَ الهَرِم

فَاقِدُ الرَوحِ مَيِّت بَيْنَ المَوْتَى

- قصيدة رائعة فعلا ومن شعرك أنت ماذا تقول؟

- إليـــك؟

- نعـــم.

- مِنْ ظَلَام التيّه إلى نَورِ إسْمكِ فَرَرْتُ

لِلْسمَاءِ أُنَادِي يَارَبُّ يَارَبُّ

ذِي العَذْرَاءُ تَمَادَتْ وَصَهِيلُ الحَيْرَة سَادَ

وَإِنّك رَؤُوفُ فَاغْفِرْ لِي نُصُوصَ العِبَادَة

1- الميت المبتهج من ديوان أزهار الشر.

فَذَا الجَمَالُ مَارَحِم بِهِ جَادَ
وَإنّي وَعِزّتِكَ لَعَبْد ضَعِيفْ
يَا قَدُوسُ ارْفَعْ بَيّنَ القَلبَيّنِ العِمَادَ
وَسَدِدْ نَحْوِي خُطُوَاتِهَا
وَجُرّ إليَّ نَسَمَاتِهَا
واصْرِفْ عَنِ الفُؤَادِ نَكَسَاتِهَا
وَعِزّتِكَ إنّ المُرَادَ لَشَرِيّفْ
هُيَامُ يُاكِتَابًا مَفْتُوحْ
عَزِزِي أَشْوَاقِي البَالِيَة بِسِحْرِك
وَارحَمِي القَلْبَ المُنَادِي بِطُهْرِكْ
فَالقَصَائِدُ أَنْتِ
وَمَاكُتِبَ لِغَيّرِك
لَيسَ لَهُ
أيُّ تَارِيخ

– رسائلك وشعرك كليهما يستفز حيائي، لم أتصور يوما أن يواجهني رجل بكلام ساحر ودافئ لا أملك القدرة على مقاومته.

– هل سيطول عمر هذا الحاجز؟

– لا أدري.

- تدركين جيّدا بأني أحترق.
- لاأدري.
- تدرين أنّي أحبك.
- أشك.
- ألن يزول الشك؟
- بدِّله باليقين.
- هل هذا يعني أنّك قد وافقت على دخولي إلى مملكتك.
- .....

إسْتِيْقَافْ إضْطِرَارِي

تَوقّف أيُّهَا القَارِئ، توقَّف..

إنَّ هَذَا الرَاوِي مُجْحِف جدًا وقد ضيَّق على حضوري وأخفى ضوئي أكثر مما يتقبّله شاعر إعتاد الأضواء.

تتساءل الآن من أنا وكيف إكتسبت القدرة على إستيقافك وإزاحة الراوي عن المشهد سوف أخبرك:

السبب الوحيد الذي جعلني أصعد إلى الواجهة هو التهميش الكبير فما كتب حولي وحول حبّي لهيام وصداقتي مع عبد القدوس وعلاقتي المشوشة مع ناريمان وغيرها لم يكن كافيا لإرضائي كما أنّ تغييب اسمي حزّ في نفسي كثيرا ولحد الآن لم أجد لهذا التغييب مبررا لا فنيا ولا واقعيا إذن مارُوي ناقص وظُلم الراوي وصل حدا لا يُسكت عنه ولذا سأواصل، ثقوا بي أحبتي، تعالوا لتجلسوا إلى جدران الغواية هيا أيّها الأحبَّة، أعدكم بالمتعة والدهشة، ثقوا بي..

إسمي يوسف هكذا ينادونني، عمري 7 سنوات بتقويم الأدب وثلاث وعشرون ربيعا بعدد الشتاءات الطويلة. عُمر الفرح قصير جدا أو منعدم وعمر الحزن أشكُّ في أنّه تجاوزني قليلا لا أملك

في الحياة إلاَّ الأقلام والأوراق وابتسامة مصطنعة أهديها للذين أحبهم مع شكّي الكبير في محبّتهم لي.

أعاني قلقا كبيرا مستعصيًّ الوصف فمذ خُدعت وانهزمت أمام العاطفة وأنا أشعر بالتعب والسأم وماكدت أتخلّص من هذين الشعورين المزعجين حتى إصطدمت بهيام فركعت لجمالها سهوا وإنزلقت على ركبتيّ متعبدا للأنوثة فيها ولم أقم من ذلك الركوع إلى اليوم ولم أنجوا من كسور الإنزلاق أبدا وها أنا اليوم أمامكم وأنتم مجبرون على الإستماع إليّ فليس ذلك الروائي هو مورطكم الوحيد بل نحن شريكان.

إذن إحزموا أمتعتكم ولنسافر في دهاليز السرد العريضة واطمئنوا فجل الذي سأقصه عليكم جديد ولم تسمع به الآذان لا حاضرا ولا وجد في الماضي التليد.

الإعْتقَادَاتْ الرَّاسِخَة هِيَ أَعْدَاء الحَقِيقَة وَهِيَ أَشَدُّ خَطَرا مِنَ الأَكَاذِيبْ.

~ فْرِيدِيريكْ نِيتْشَهْ ~

كُن قاسيًا ومشتعلا، لا شيء يقطع هاته اللّذة مادامت التي بين يديك أنثى.

كانت هذه هي الجملة الأخيرة لعواطف قبل أن تنطفأ إلى الأبد، حاولت أن أجعل جملتها قاعدة أطبقها ككل القواعد متى وجدت لها الأرضية المناسبة مع أنّ القسوة لم تكن من طباعي فالمروءة التي كنت أظهرها كثيرا يختفي وراءها قلب شبه مؤنث يبكي لأصغر الأسباب لكن قول دوجلاس ماك آرثر حفر عميقا في وجداني وقد حاولت العمل به مرارا والذي جاء فيه «سيتم تذكرك بحسب القواعد التي قمت بخرقها في الحياة» وكنت قد قررّت أن أصب إشتعالي بعد مزجه بقسوة الذكورة على هيام إلاّ أنّها لم تمنحني فرصة لا لأكون دافئا أو قاسيا.

بعد أحداث عسيرة تفاقمت وتواترت فتحت هيام لي صدرها وقبِلت طيشي وجنوني شريطة تهذيبه ورحّبت بمشاعري بشرط أن اصقلها وأمرّنها على مايروقها هي لا مايروقني.

مرّت الأيام وذلك الحب الخجل مثبّت في مكانه لا تَطَور ولا اضمحلَّ. نفذت أيام الموسم الجامعي وأصبح اللقاء بها حلما هذا إن لم يكن معجزة، قلّت الإتصالات وتعدّدت أسباب الشوق.

فعلا اشتقت لها، وليالي الصيف جعلت مني عاشقا بامتياز، أتفرّس النجوم وأبحث بين الكتب والدواوين عن شيء ينفس عن خاطري فلا أجده. رغم البرود لازلت متيما بها.

حلّ شهر رمضان فبدَّلت الناس الشر بالخير وتابت وصلّت أما أنا فكنت أقضي الليل في كتابة قصائد لهيام لن تقرأها والنهار أقضيه نائما وحالما بها فلا الدنيا كسبت ولا من الآخرة نجوت وكنت تائها ككل التائهِين في ممرَّات العشق ودهاليزه.

مشكلتي الكبيرة في هاته الصائفة الحارّة أنَّ إغلاق هيام لهاتفها أشعل حرارة قاتلة بفؤادي ولم أجد لإطفائها سبيلا.

مرّ رمضان وصامت الأقوام وفرحت بالعيد بكل ما تملك من وسائل الفرح إلاَّ أن صوم هيام عني جعلني أشعر بالجوع مهما أكلت وبالعطش مهما شربت وبالوحدة مهما تجمعت الناس حولي أو بهم إجتمعت.

بعد تلك الأشهر الجهنَّمية افتتح الموسم الجامعي من جديد وعاد الكسل الكثير والعلم الوفير، التقيت هيام محمّلا بألف سؤال وشكوى لكنّها أفلحت في تجنب ثرثرتي حينما وضعت قبلة على جبيني ومسحت على رأسي وماكدت أنطق حتى أضافت قبلة أخرى على شفاهي. إبتلعت كلامي فصمتُّ وغرقت في لذّة رهيبة وقبلة ذكرتني بجون ويمان في

فيلمه «أنت في الجيش» والتي وصلت مدّتها إلى 185 ثانية أما أنا وهيام فلم نستطع منافسة جون ربّما بسبب الخبرة أو الخوف.

نسيت بأنّها أستاذتي ونست بأني طالب عندها وتذكّرنا فقط بأننا عاشقان وشبهتُها بالسيّدة اليزا شيلي سنجر التي أحبّها فلوبير جوستاف مع أنها تكبره بتسع سنوات وهو نفس العمر الذي تتجاوزني به هيام مع أنّ الذقن الذي كنت أتفنن في رسمه بشفره الحلاقة وربطة العنق الجميلة أفلحا في إظهاري بعمر أكبر من عمري قليلا.

بعد ذلك الغياب الطويل الذي فرغت من غضبه بقبلة لا تشبه القبل، تعمّقت أوَاسرُ المحبّة وزاد لهيبها، تزاحمت الأشواق آناء الليل وأطراف النهار وتعدّدت وتكاثرت وتزاديت.

من خصال هيام الإلحاح، شعرت به بعد طول غياب كانت ملحّة ودافئة لا تضيِّع لحظة من اللحظات إلاّ ومرّغتها في إناء القلب الكبير، تعاشقنا وتمادينا في العشق لحدٍّ لا يُوصَف.

أقيم في شارع بلا إسم. سكّانه طيّبون ومتقنون لكل فنون التقاط الأخبار، لم يسمعوا بشئ إسمه الأدب ولا يعرفون من الحب إلاّ الحكايات القديمة المدهشة في كذبها والعائدة من تراث مزيف.

كانت الحاجّة الباهية تحدثني كل مساء عن حكايات الوجد وأسرار النساء وما أخطر الأسرار وماأكبرها حيث أوصتني بأن أكون فحلا ولا أتنازل عن هزيمة أيِّ امرأة وأن أكون مغوارا أزلزل أنوثة كل النساء وأخبرتني أيضا بوصية وقد اسميها قاعدة، أكاد لا

أذكرها من خوفي عليكم لكنني سأخبركم باسم الأدب وليسامحني هذا الأدب الذي ورَّطناه وتورطنا فيه، قالت لي بأنّ النساء يعشقن العضو الصغير فاستغربت وشعَرَت بذلك ففسرت لي هاته القاعدة العجيبة بقولها أن الكبير مزعج ويصل إلى مواطن لا فائدة تُرجَى من إقتحامها وراحت تصف لي الأعضاء بأحجامها مستعينة بيديها ليكون وصفها دقيقا، ذكّرتني بالماركيز دو ساد ومازوخ وكتاب الباه وألف ليلة وليلة، غصت مع الحاجة الباهية إلى حدّ كبير ففقدت القدرة على زيارة المسجد تلك الليلة بعدما شعرت ببعض الرطوبة بين فخذيّ ومنذ تلك الجلسة أقسمت ألاّ أطيل الحديث مع الحَاجَّة لأنّ الإسترسال معها بات أمرا مخيفا.

تلك الحكايات العجيبة التي حفظتها عن ظهر قلب أصبحت تُشكِّل مزاحا مستمرا بيني وبين هيام نلهوا بتلك الأحاديث ونتفلسف فيها ونضحك كثيرا، ما أجمل الأمّهات وما أروع الجلوس إليهنَّ، حتى الشيوخ متميزون في بهاء الوقار الذي يحفهم، أحبّهم ولو أني قاطعت الجلوس اليهم منذ قال لي أحدهم ردا على إدعائي بكره النساء: ياوليدي لي قال النساء يتملوا يا دراهموا قلّوا يا نفسوا تذلوا.[1] وإثر هذا القول الذي دوّخ ذاتي، بتُّ ساهرا أجرب أعضائي ولم أنم إلاّ بعد أن تأكدت من قوتها وليتني كنت متزوجا فأغنيت امرأة عن حرائق الصيف.

التقي بهيام يوميا، تُهرِّب الحزن وتبعده عن بوتقتنا، نحارب اليوميات البالية بالحب ونهرب معا نحو الصمت أينما وجد.

1- من يدعي كره النساء فإما ماله نقص وإماّ عاجز جنسيا.

العمر الذي بيننا سرق منها الفرح في مواطن كثيرة، كنت أشعر بذلك في مناسبات متفرقة، تعمّدت دوما التهرب من المواجهة أو الحديث عن شؤون تقودنا إلى قلق كبير.

توفى والدي وترك خلفه فراغا كبيرا تسكنه الفاجعة، إغتاله الضغط الدموي بشكل رهيب ولن أسامح هذا الضغط ماحييت والذي لم ينفع فيه الموديريتيك[1] بكل جرعاته ومقاديره، أتذكّر جيدا الجلطة التي أصابته وسببت له الشلل النصفي، لم ينفعه السانتروم[2]، تعقّدت وضعيته فلزمه الشلل لأسابيع طويلة والذي زاد الطينة بلّة هو داء السكري الذي توّج كل هاته العلل فكان الختام.

ذهب نحو قبره آخذا معه أخبار السياسة وخبث السياسيين، متشبعا من الطيبين والفاسقين، أخذ معه أسرار باريس وحكاياتها وذهب حزينا على سوريا وليبيا وكل بلاد العرب، إتّهم اليهود كثيرا وسبّ إسرائيل مرارا لكنّ لعن أبي وشتمه لا فائدة منه وليس سوى عويل وسط الصحراء.

كان رجل المواقف ذو رأي ثابت، مشكك في كل جاهز لا يملك أوهاما إتجاه الحياة.

ظهر ذات صباح عبر شاشة التلفزيون رجل وقور ذو لحية كثّة ينادي: أيُّها الداعرون، أيّتها العاهرات، تعجبنا منه كدت أغيّر مكاني لولا حرص أبي على بقائي.قال لي بكل أسف: ماهكذا تكون

1- Moduretic من الأدوية المضادة للضغط.

2- Sintrom من الأدوية المضادة للتخثر.

الدعوة، هذا يشوه الإسلام أكثر ممايدعوا اليه.ماكاد أبي يكمل كلامه حتى واصل ذلك الشيخ متبجحا: من يقول الحداثة كافر من يقول اللبيرالية كافر من يقول العلمانية كاااافر. صدمنا بهاته الإتهامات الكبيرة.قطع أبي صدمتي وهو يقول: جزء يستخدم الطائرات بدون طيار وجزء يحمل أسلحة روسية وينادي سنقاتل الكفار، أقوام صنعوا آلات وأقوام حطمت مالم تصنع وقالوا دعر وفسق وحرام.

تعجّبت من تحليل أبي ومن رؤاه ومنذ ذلك اليوم بدّلت نظرتي نحوه وبدأت أرى فيه المفكر لا المتلقي لما يفكر فيه غيره والمحلل لا المشاهد وزادت المحبة..

سرقهُ مني الموت ومن شقيقاتي ومن أمي التي لم ينفذ إشتهاؤها له منذ عقود، فعليه رحمة اللّه ورضوانه، كان شمعتي وسط الدهليز الطويل ومطر الجفاف الحزين، تفرّق الفرح منذ فقدناه وإحتجت لزمن طويل كي أنسى أمر موته قليلا أما ذكراه فهي الشئ الوحيد الذي أجزم بأنّه سيبقى خالدا في ّ ماحييت.

أستعيد ذكريات الطفولة كلّما تذكرت أبي انتشيت بوجهه الهارب مني وأنادي باسمه في أكثر اللحظات ألما وقهرا.الحياة عبئ هذا ماترسّخ في ذهني مذ عرفت معنى أن يغادرك شخص أحببته بلا رجعة.

أين أبي، أين عواطف، أين عزوز، أين جدّتي السخيّة أين الياس، أين بلال كلُّهم هاجروا.

الأَحبَّة هَاجَرُوا، أَخَذُوا المَكَانَ وَهَاجَرُوا، أَخَذُوا الزَمَانَ وَهَاجَرُوا، أَخَذُوا رَوَائحَهُمْ عَنِ الفَخَّار وَالكَلأ الشَحِيّحْ وَهَاجَرُوا أَخَذُوا الكَلَامَ وَهَاجَرَ القَلْبُ القَتِيلُ مَعَهُمْ...[1]

أبدعت يا محمود وصدقت، القلب قتيل مذ افترقت معهم، قد نلتقي في العالم الآخر اذا وسعتنا رحمة الله.

1- جزء من جدارية محمود درويش.

خارِجَ المَوْتِ كُلُ شيء مَشْكُوك فِي أَمْره

رفيــق

عبد القدوس صديقي الجميل الذي تداخلت معه حدّ الأخوة وأحببته كمابادلني المحبة يسير بخطى ثابتة نحو المجهول، نحو شيء لم نعرفه إلاّ في كتب القانون وحولياته.

أودعت حبيبته السابقة شكوى ضدّه متهمة إياه بهتك عرضها مع أنّها لم تكن قاصرا بحسب معلوماته إلاّ أنّ التحريات والتحقيق أثبتا عدم إكتمال سن الرشد لديها. تمّ إعتقاله ووُضع رهن الحبس المؤقت في إنتظار محاكمته.

أكبرفاجعة بعد وفاة أبي هي تواجد عبد القدوس خلف القضبان، لم يخطر ببالي يوما أن يحدث هذا فطيبته التي تصل السذاجة أحيانا لا تستحق هذا الجزاء الفظيع.

تذكّرت يوم أخبرني بأنّه عثر عليها، كان فرحا فرحا شديدا فقلت له: ألا تخشى غدرها وأنت تعشقها بكل هذا السرور. فقال: لا يا صديقي هي أكثر من امرأة وقد وقّعت وسأكرر توقيع كلّ عقود الحب أمام عينيها فالوقوع تحت ظلال شفاهها لا يمنحني حقّ المساومة.

هاقد منحتك ظلال شفاهها، ظلال السجن العالي الجدران.

أصدق يا حبيبي أنّك برئ وأنّك قد وُرِطت، لكنّ الأدلة قائمة وقد أثبتوا كما اعترفت بمواعدتك لها لم يشي بك أحد يا صاحبي، برئ أنت من ذلك الغشاء الملعون لكنّ شهوتك قادتك إلى أغوار لست أهلا لدخولها.إنّ كيدهن لعظيم.ستقولها لي بكل برودة لكنني سأرد عليك بكل ثقة لأقول لك ولو غضبت بأنّ كيد الشهوة أعظم وبأنّ طريقها شائك وخطير. ستقول لي إنتهى الأمر وكفاك نصيحة وسأردُّ بقوة أكبر لأقول: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُون» ليتنا لم نتحدّث كثيرا عن هاته الحكايات، أنسيت يا صاحبي قصة عبد الحق التي سردتها عليك أكثر من مرّة ألاَ تتذكّر كيف ورّطته سعاد بنت المكي بجعله يصب ماءه في رحمها قهرا. اللّعنة.

بعد محاكمته التي دارت في جلسات متعدّدة حكم عليه بخمس سنوات سجنا نافذا.زرته أنا وناريمان أكثر من مرّة، إنهار تماما وفقد وزنه، زودته بالكتب وبعض الأغراض وعدت باكيا حاله، كيف كان وكيف أصبح.ناريمان إنفجرت باكية وقلبها الدافئ لم يحتمل رؤيته، صحيح أنّها لا تعرفه بعمق إلاّ أنَّها لم تحتمل تحول مظهره وضياع خطوط وسامته وبشاشته التي عرفته بها، تواصلت زياراتي ووعدت نفسي كما وعدته أن أكون رجل الموقف مهما كان مقدار التعب.

مرّت أيام وليالي دون حدث يستحق الذكر، روتين قاتل يحيطني، أشغل فلسفة العبور وأتمسّك بمفاهيم تجعل الدّنيا مجرد وسيلة لا غاية، وسيلة لعمل الصالحات والتزود من الخيرات من أجل توفير الأجر والثواب واكتساب مكان في جنّة لا يتصورها عقل ولا خيال

فعن أبي هريرة رضيّ الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: أَعْدَدْتُ لعِبَادِي الصَالحِينَ مَالاَ عَيْن رَأَتْ وَلَا أُذُن سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر. وفي بعض رواياته وَلاَ يَعْلَمُهُ مَلَك مَقَرَب وَلاَ نَبِيّ مُرْسَلْ.

أتحدث عن الدين وأتفلسف فيه، أتحدّث عن الآخرة وأشتهي جنّتها وحين ألتقي بهيام بوصوف أكاد أنسى إسمي والعن كل القواعد والثوابت وحين افترق معها أعود إلى رشدي وأستغفر الله كثيرا وأكاد أبكي لكني لم أبك مرّة واحدة ثم أنكسر وأقول ماقاله ابن عطاء الله السكندري: ربّ معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزّا واستكبارا. وأنسى. شبّهني صديق برجل يسمى إبن الرواندي لا أعرفه ولم أسمع عنه شيئا وقال بأنه زنديق كبير إذن أنا زنديق قلت له فنفى ذلك وراح يخفف من مزحته بطرائق مختلفة.

أنا مجرد شاعر ككل الشعراء غير المعترف بهم أحب هيام لا أكثر ولا أقل وأكره ماتكرهه. أعترف وإن قيل مهزوم، فأهلا وسهلا بالهزيمة.

أكتب بشكل مستمر وأحلم بأن أصبح كاتبا، هيام لا تشجعني وتتهجّم على نصوصي كما سبق وقلّلت من عاصفة العاطفة كتابي الذي شكّل الخطوة الأولى في مسيرتي التافهة، قرأت ذات يوم بأن هارفيه وفوكو يعتبران الكتابة دليل الوجود وأنّها رفقة الجنس والحياة يشكلون حقيقة واحدة، لم أصدق هذا القول ولم أتمكّن من تبنيه أو تبني جزء منه على الأقل، فقد وجدته متشعبا ومتعدد التفاسير.

ماركيز دو ساد يقول بأنّ لا طريق لمعرفة الموت أفضل من ربطه بمخيلة فاسقة لم أنجح في تحديد المفهوم الدقيق لهذا القول لكنني

أجد بعض الموت حين تهزُّني مخيلة هيام الفاسقة والتي اكتشفتُ حجم فسقها الكبير حديثا فلم تعد تكتفي بتوجيه التلميحات والإشارات بل تمادت وصارت تطلب مني الهبل والجنون ولا ترضى بالعادي منه بل تبحث عن أقصاه.

مرّت أيام طويلة كان العشق في أوجّه، يتطاير الفرح من الأعين وبواعثه تتجدد بشكل يومي، منخطف بها إلى حد بعيد، أحبُّها وغير حبِّها لا أريد شيئا من مملكة النساء، لا أنكر أنّها عاصمتي للفرح وان ادعيت غير ذلك أكون قد كذبت.

ناريمان أصبحت تشعر بشساعة المسافة التي بيننا والتي تزداد إتساعا يوما بعد يوم، الإنسان وحده بقلبه قادر على التمييز بين الذي يحبه وبين الذي يحتِّم على نفسه مجاملته، إلاّ أنَّ العاشق كثير التأويلات مما يوقعه في مالا يشتهيه هكذا كنت ولا زلت حيث لا أجد لها بين أشيائي القلب الذي يعشقها فاستيلاء هيام على تفاصيلي الصغيرة والكبيرة حرَمَني من ذاتي وجعلني مراهقا في عمر النضج وأخَّر بحثي عن حقيقة الحب والأدب لأصبح باحثا عن حقيقتي التي جهلتها وأنا بأمس الحاجة اليها فالّذي لا يعرف نفسه لن يجد الطريق الذي يدلُّه إلى معرفة غيره ومعرفة الإنسان سابقة لمعرفة الكون ودقائقه.

تمرُّ الأيام بسرعة وتتبدّل الفصول وأيام العمر تتناقص.حينما اقترب الموسم الدراسي من الاختتام جلست ذات ليلة محاسبا ومفكرا في السنوات التي قضيتها مرابطا بين جدران الكلية اتفقه في الفراغ وأتعلّم مايُنسى، لم أجد إلاّ أرقام رياضية دونت في كشوف

كثيرة تشهد على تحصيل نسيت أني حصلته ولم أتذكّر أبدا بأني بحثت فيه أو تعبت من أجله -عابرون في كلام عابر-.

لم يتبق من الجامعة إلاّ بعض الذكريات لا أدري ان كنت ساتذكّرها مستقبلا أم أنساها كما نسيت كل الدروس.هيام لن أنساها واثق من ذلك كما أنني لن أنس الأمسيات الشعرية الكثيرة، لن أنس أيضا تلك الفتاة التي إستوقفتني وأنا أغادر أمسية شعرية وطلبت مني أن أجرِّب عليها قصائدي الممتلئة بالحديث عن النهود والرقاب والأرداف ووعدتها بذلك ولم أوف بالوعد الفاسق، لن أنس أيضا عواطف قبل أن تُسرقَ مني حينما سقطت مغشيا عليها وحملتها وكاد حملها يُسقطني معها لولا أن تذكّرت بأني قلت لها في قصيدة:

لُولاَيَ أَنَا
مَاكُنْت أَنْت
وَلاَ أَنْت أَنْت
وَلَوْلاَ مُقْلَتَايَ
مَادَخَلْت قَوَاميسَ السَيِّدَات
وَمَا اجتَمَعَ اسْمُك
بِاليَاقُوت وَالكُونْزِيت
وَالسَوْسَنْ
فَأَشْكُرُك جدًا
أَيَّتُهَا السَيِّدَة التِي تُتْقِنُ
فَنَّ التَصَوُفْ.

إذن بجهودي بلغت التصوف في الحب وأصبح بامكان غيرتها أن تسقطها في فقدان الوعي، كم هو خطير هذا الجنون، ماذا لو سقطت على قفاها في تلك الغيِّرة وماتت بسببي، كنت سألحق بها بعد أن أهديها رواية.بلاشك.

لكنّ السرطان قتلها ببطئ وشناعة لا تضاهيها بشاعة النازيين في أوجّ قوتهم وامتصّها بكل حقد وبغض مع أنّها لم تفعل له شيئا ولم تظلمه ولم تتعرّف عليه من قبل.لم ألتق به وإلاّ كنت شتمته وبصقت عليه دون أن أهتّم لأخلاق الكتابة أو خلق الكاتب ويا للأسف.

حين فقدت مَعلم الحياة ومعالم كل شيء جميل إستَشعَرَت إنهيارها فاختفت عن الوجود.لم تَسمح ولم يُسمح بالدخول عليها مخافة أن تفقد صورتها البريق الذي اكتسبته منذ أيام الطفولة فلم تكن جميلة وفقط بل كانت تحفة ساحرة ومدهشة.

حينما فتحت أمامي كاميرا السكايب، إبتسمت وجعلتها تبتسم بحماقاتي وهي في عزِّ انكسارها لم تَطُل المحادثة وحين أغلقتها سقطت مباشرة على ركبتيَّ، وضعت جبيني على حافة السرير وبكيت ولطمت جبيني وقلت:

إلاَكَ عَلمْت قوَى الصَّدَى اللَيْلي
عَرَفت تَوَسُلَ الأنجُمْ وَهِيَ تَذْوِي
فَقَدْتُ سَاعَتِي اليَدَوِيَة
لَتَمْلكِي لوَحْدِك سَاعَتَيْنْ
سَاعَة تُعدِّينَ بِهَا الوَقْتَ

وَسَاعَة للآلَامْ
كَانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ تُغَازِلِي قَصِيدَتَكِ التِي لَمْ تُكْتَبْ
وَتَنْطقِي حَرْفًا مِنْ حِمَمِ فُؤَادك
فَتَحْتَرِقُ عَمَادَةُ الشِعْرِ
وَالدَمْعُ يَنْضَبْ
يُنَادُونَ خَلْفَ السَتَائِر
يَا صَاحِبَ الرَقم خَمْسِين أَوْ سِتِين
لاَ يُهِمْ
فَأَنْتَ وَعِلّتُكَ لَدَيْنَا سَجِينْ
فِي عُلُو السَرِير الأَبيَضْ
كَانَتْ تِلْكَ السُمُومُ تَعْوِي
لاَ لاَ لاَ
لَمِ أُخْلَقْ لِهَذَا.

وهكذا كتَبتُ بالتراب المضمخ بدمعي فوق قبرها أحبُّك ولن تشبهك امرأة ولو ملكت كلّ النساء. بعد ليلة من سقوطي كتب لي أحدهم رسالة على الإيمايل جاء فيها: يجب أن لا نبكي على أصدقائنا، انها رحمة أن نفقدهم بالموت ولا نفقدهم وهم أحياء. لم يشر إلى صاحب القول لكنني عرفت بأنّه مونسكيو فأعدت له رسالة كتبت فيها قولا للدكتور «مصطفى محمود» جاء فيه: لا توجد حقيقة نتعامل معها وكأنّها الوهم مثل الموت.

فعلا كان التفكير في موت عواطف وهم كبير بحجم السماء لم أتصوّر وقوعه يوما.

صاحب الإيمايل كان قريبا لها ومن عائلتها، تعرّف عليّ دون أن أتعرفّ عليه وبعد أيام كشف لي حقيقته وكشف لي حقيقة أكبر من كل شيء حين أخبرني بأني قد كنت الطلب الأخير الذي رُفض لعواطف بعد أن الحّت على رؤيتي في لحظات شرع فأس الموت في إقتلاع جذورها وسحبها نحو البياض.

باسم الحرام والتحريم اغتصب حقُّها في رؤيتي وضاع حقي في الإمساك بيدها وتقبيل جبينها واهدائها قصيدة من شعري الذي كانت تشتهيه رغم رداءته وتصفق له رغم ركاكة الفاظه وخلوها من الجزالة والدقّة ويا للخسارة ربّما كانت ستوصيني بشئ ما أعرفه، ألاّ أقترب من النساء وألاّ أحب غيرها وأن أتذكرها في صباحي ومسائي لكنّ العادات حرمتها من ذلك.

بكيت وبكيت لأجلها وقاطعت الحبّ وكل طقوسه وتجاهلت وتعنّت في التجاهل ووقفت ضدّ كل الشهوات واتخذت من أفلاطون مثلا فهو الذي قاطع الشهوات والزواج ومات مقاطعا ولكنني عجزت أمام ذاكرتي القاسية فبقدر فرحي بترسُّخ عواطف فيها بقدر وجعي من تلك الذاكرة، لم أكن أعتقد بأنّ الحزن أكبر منها لأنني متيقن من أنّها تعلوا كل شيء في حياتي المتعبة.

حين رأيت هيام للمرّة الأولى شعرت بأنَّ ميعاد التنفس قد حان وأنّ جعل عواطف مرجعا وذاكرة لابدّ منه لتجاوز المحنة الخانقة

التي قتلت كلّ الأشياء الجميلة بداخلي طوال عامين من توسدها للتراب الذي نال منها إلى الأبد واليوم هي خلفيّتي ومرجعي الذي أعود اليه كلّما هزّني الشوق إلى شيء لم أعد أعرفه.

في رحلتي نحو التجديد ومعرفة حقائق العاطفة رفقة هيام، أدركت أشياء تجاوزني فهمها وتفسيرها فهيام أصبحت مرعبة بسيطرتها الأنثوية وغيرتها المجنونة صرت أشعر في الكثير من الأوقات بأنّها تتحكّم في جلّ أشيائي الكبيرة والصغيرة والحميمية منها خاصة حيث إنزعجت مرارا من توظيفها لي في خدمة رغباتها غير المحدودة فهي تملك جسدا مذهلا من حيث التفاصيل ومبهرا من حيث اشتعاله الذي لا يلبث أن ينطفأ حتى يعيد الكرّة من جديد. ايمان جسدي عظيم ونهم شديد نحو اللذائذ التي لا تعرف الإنتهاء.

التقيت بها مرارا في بيت صغير تزيّنه الألواح وبعض الكتب التجارية، كان قلبها يستقبلي بحفاوة كبيرة لا أجد لها نظيرا، حفاوة الكلام والجسد المزهر.تجلس أمامي واضعة فنجان القهوة وبعض البقلاوة التي مذ أخبرتها عن اشتهائي لها لم تتأخر عن جلبها في كل لقاء.

لا تصبر أبدا عليّ وأنا أرتشف من ذلك الفنجان الذهبي، تسحبه من يدي وتقدم لي نهدها الممتلئ بالحياة وتلحُّ أن ابتلع مايسع فمي دون أن تهتم لاحتمال إختناقي به وحين ترى وجهي احمرّ وأنفاسي تقطّعت تنسى آهاتها لتنفجر ضحكا.

- مجنووووونة.

- سأقتُلك به مادمت تشتهيه.

- مخيف أن أموت بنهد.

- لكنّك تحبه.

- ليس لحد الموت به.

- هههههه.

ولأنني أقل منها عمرا مارحمت يوما طفولتي أمامها وأفرطت في نشر هبلها الجميل حولنا في أكبر اللحظات تعبا ولذّة حيث تمزق ملابسي الداخلية وتسخر من أشيائي الصغيرة التي أخافتها أكثر من مرّة.

لم تعد ناريمان تأبه بي كثيرا وبتُّ أشعر بأنّها تحبُ آخرًا أو تقترب من حبٍّ لا أعرِف عنه شيئا، صارت أحاسيس الغربة بيننا ممتدّة كجسور طويلة، لم تعد تلك التي بكت كثيرا يوم صدمني عشقُ أستاذتي وأظهرته أمامها عن غير قصد.

لم ألتق بها في أيِّ مكان يثير الشبهة أو الخوف بعد ذلك الموعد فالخيانات بشتّى صنوفها أصبحت تزعجني وأقسمت ألاّ أقترب منها ولا من شبهها المقلقة وأن أظلّ نقيا تقيا أمام قلب هيام الذي منحني عالما لم أفكر يوما في تواجده في مماليك الحب الكبيرة.

كلّما جلست في البيت تذكّرتها وتذكّرت أبي فتطغى ذكرى أبي على كل الذكريات وأسقط بين براثين الحنين والإشتياق فغيابه ليس عاديا وسيبقى فوق الإعتياد مهما طال الزمن، تمنيت أن يعود لساعة أو نصفها ويرى الذي يجري في سوريا وليبيا والعراق، متأكد

بأنه سيشتم كثيرا الابراهيمي الذي أحبّه ووثق به وسيلومه على ترك مهامه، متأكد أيضا بأنه لوعاد ستكلفنا عودته شراء تلفاز جديد فهو لا يحتمل الحديث عن الخلافة وربط الإسلام بالسياسة. لائكي متعصب ولا يعترف بهاته الأشياء، لكنّه لن يعود فالتفاصيل المقلقة لا تحفزه على العودة فهو الوحيد من أقرانه الذي يستشهد بالعقاد ويقول لي بأنه تعلَّم ودرس الحشرات لأنه يدرس السياسة والساسة والفرق بينهم ليس كبير.

أَحْسِبُ أَنَّ كُلّ لَحْنٍ لاَ يَعْبَقُ بِطِيبِ ثَغْرِكَ
بَقَايَا أَنْغَام تَنْتَحِبُ ضَيَاعَ الجَمَال

- مَادُونَا عَسْكَر -

أقيم ملتقى حول آفاق القانون الجنائي وتطوراته بالجزائر العاصمة، هيام كانت مشاركة ومحاضرة فيه، الحّت عليَّ أن أحضر رفقتها وأكون أنيسها خلال الأيام الثلاثة.

أقمت بفندق لا يبعد كثيرا عن المقر الذي تجري فيه فعاليات الملتقى، كلُّ شيء هادئ وجميل ويبعث على الإشتهاء، مدينة ضخمة بشوارع مكتظة وأناس تعدّدت أوصافهم واختلفت فيهم الملامح، سيطرت المدنية الغربية على الموجودات وتلاشت الكثير من مقوماتنا واضمحلَّت.

هيام تنزل كلّ صباح إلى الملتقى وتتهرّب منه قدر المستطاع لتكون معي فنختلي في حميمية كبيرة وأول مهربة هي إتخاذها لأسباب واهية لتتملص من الإقامة في السوفيتال إلى الإقامة في فندقي المهترئ قليلا والذي لا يحتوي إلاّ على سرير ممزق وبعض الأفرشة البالية والجدران الفاسدة الطلاء.

تعود في المساء أو منتصف النهار، تستحم بمياه باردة في حمام شبه معطل وتأتي اليَّ طازجة تتقاطر بشعر نديّ يهزُّ صمتي.

في المساء الأخير جلسنا على حافة السرير، رحنا نتحدّث عن البدايات وعن أجمل اللحظات المدهشة، وجدتها نادمة على الوقت الذي ضيّعته في كبرياء ومنأى عني وبرّرت لي ذلك بخوفها من اقتحام الحب وجنونه.وجدت نفسي مقتنعا بكلّ ماتقوله دون أدنى تفكير فجمال الموقف لا يحبذ أيّ فكرة تنكد عليه، كنت مسرورا لحد تجاوز الكلمات، منبهر بها خائفا منها وعليها، طاردني في تلك الليلة أرق مخيف بدّد سكوني وجعلني أجلس عند قدميها كقط مرتعش، أحسست بأنّ المجتمع لن يترك لنا المجال لنستمر، تذكّرت العمر الذي بيننا بعد أن نسيته، فكّرت في احتمال خسارتها ذات يوم فبكيت، كدت أوقظها لأخبرها بأني أحبُّها ولا حياة لي خارجها لكنني تراجعت فهي تعرف ذلك جيّدا وكثرة الإعترافات قد تسقطني في إبتذال لا أرغب فيه فالإعلانات المتكررة عن الحب تقتله أكثر مما تحييه واحتكار الكلمات للمواقف الأكثر جنونا يجدي أكثر من رميها في الهواء.

قذفت الأعراف بعيدا قبّلت قدميها الصغيرتين، دخلت الفراش بهدوء، دسست أنفي بين نهديها وأغمضت عيناي، تسللّ إليّ عطرها مخدرا لقلبي المرتجف، شَعرَت بي فتلاحمت معي، أقحمت ساقيها بين ساقيَّ ووضعت يسراها على خاصرتي ويمناها على شعري فبكيت.

عدنا إلى المدينة بعد أيّام جميلة انقضت، لم نتحدث بعد عودتنا يومين أو أكثر، طلبت مني ألاّ أتصل بها لأن ظروفها لن تسمح لها

بالّرد فاقتنعت رغم أن قلبي إحترق كثيرا وشعرت بحاجة ملحّة للحديث معها لكنني اكتفيت بالإنتظار.

زُرت عبد القدوس وجدته ذابلا بائسا لا يشعر بشئ من الحياة، ذهبت سخريته وانكسر فيه شيء لا أعرفه ولم أستطع تحديده.

تحدّثنا عن الحياة وشؤونها، عن الجامعة، عن الأسرة، عن كل شئ، حاول أن يضحك فأفلح قليلا .نظرت فيما يحيطه فوجدت الحزن يعمِّر المكان والخواء كبير لولا بعض الكتب التي بعثت الحياة فيه فقد حدّثني عن قراءاته المختلفة.عرفت أنه زاد إطلاعا وأدرك قيمة الكتب في ظل الفراغ الكبير، أدهشتني قصيدة محمود درويش التي كتبها بيده واستأنس بها بدسها في جيبه، سحبها بروية وقال لي إقرأ:

مِتْرٌ مُرَبَعْ في السِجْنْ[1]
هُوَ البَابُ مَاخَلْفَهُ جَنّة القَلْب أَشْيَاؤُنَا
كُلُّ شيء لَنَا .نَتَمَاهَى وَبَابُ هُوَ البَابْ
بَابُ الكِتَابَة، بَابُ الحِكَايَة، بَابُ يُهَذِبُ أَيلُول
بَاب بَعِيد الحُقُولِ إلى أَوَلِ القَمِح
لاَ بَاب بِالبَابْ لَكِنَنِي أَسْتَطِيعُ الدُخُولَ إلى خَارِجِي
عَاشِقًا مَاأَرَاهُ وَمَالاَ أَرَاهُ
أَيِفي الأَرْضِ هَذَا الدَلاَلُ وَهَذَا الجَمَالْ وَلاَبَاب للبَاب

1- من قصيدة أربعة عناوين شخصية ديوان هي أغنية هي أغنية 1986.

زِنزَانَتِي لاَ تُضِئُ سِوَى دَاخِلِي
وَسَلاَم عَلَيَّ سَلاَم عَلَىَ حَائِطِ الصُونِ.

أكملت الأبيات، إغرورقت عيناي، تجمّد عبد القدوس في مكانه وسحبني الوقت خارج السجن.

عُدت إلى البيت تعبا، وجدت أمي كعادتها منهمكة في نكد لا ينتهي، علّقت شقيقتي التي تصغرني بسنتين إطارا يضم صورة أبي، لم يكن لها مال لتفعل ذلك، عرفت أنّها استهلكت حصالتها التي أخفتها من سنين، ناديتها عوّضت لها المال مضاعفا، قبّلت جبينها ومشيت.

دخلت غرفتي، لم أجد فيها شيئا يغريني بالبقاء، رائحة الورق الأصفر، كتب متناثرة، غبار، فراش وسخ، أغراض غير مرتبة، جلست أفكر في عائلتي التي لا تملك غيري، تذكّرت طفولتي الجميلة وأشياء البراءة التي ضاعت، سَخِرتُ من الوقت المستعجل، من العمر الضائع، من كل شيء وأغمضت عيناي رغبةً في النوم.

نصف ساعة انقضت، غرقت فيها في نوم عميق، إستيقظت مبللا بعرق غزير، تفحّصت الهاتف فوجدت بأنّ هيام قد اتصلت أربع مرّات، حمدت الله لعودتها، نهضت، أخذت حماما، جلبت فنجان قهوة، جلست على الشرفة واتّصلت بها فقالت:

- أتمنى أنّك بخير، اشتقتُ لك حبيبي.

- قد أكون بخير لكن بدونك لا يمكن الجزم بذلك.

- سنلتقي قريبا.
- أين والموسم الجامعي قد انتهى بالنسبة لكِ
- من قال أنّ اللقاء سيكون في الجامعة، لديّ مفاجأة لك.
- أنتظرها بحب.
- سأتصل بك غدا، كن بخير، أحبك.
- أموت فيك.سلام.
- ســـلام.

رحت أفكر في مفاجآتها، شعرت بنور يتوهج بداخلي وأصابع من ضوء تسحب شفاهي لترسم إبتسامة طويلة. لن تكون عادية فليس من عادة هيام الكشف عن هبلها أو الإنذار به.

في اليوم التالي إتّصلت بي، كانت فرِحة أكثر من عادتها، مبتهجة بشئ لا أعرفه، طلبت مني أن أُحضِّر نفسي للقاء معها ليلة الخميس أيّ بعد ثلاثة أيام ووضحت لي مكان اللقاء فتحفّظت، الحّت عليَّ وطمنتني بأنّ كل شيء سيكون جميلا وأنَّ حضوري سيكون تاريخيا بالنسبة لها وبأنَّ بيتها العائلي مجهز لاحتوائنا.

حضَّرت نفسي جيّدا، اقتنيت بعض المستلزمات وانتظرت الخميس بفارغ الصبر، شعرت بنوع من المخاطرة والمغامرة كما أنِّي لا أعرف عن عائلتها شئ، فكّرتُ وفكّرت ثم استنتجت بأنَّ المرأة لا تدعوا رجلا إلى بيتها العائلي إلاَّ وقد إتخذت كلَّ الإحتياطات.

في آخر ليلة تفصلني عن اللقاء بها، بتُّ أكتب، كتبتُ الكثير والكثير دون أن أدري سبب النهم المفاجئ ودون أن أعي مفاهيم ما أكتب فجُلّ مادونته هلامي وغير واضح، لكنّني واصلت ملأ الأوراق بلا هوادة.

أذَّنَ الفجر فتذكّرت الصلاة التي ضيّعتها مذ ولجت عوالم اللامعقول بعد أن كنت متمسكا بها مؤمنا بفضلها، مستنيرا بها، لكنّني ضيّعتها.

بعد الفجر عدت إلى مخطوط رواية كنت قد نسيتها، ختمتها ببعض الكلمات وقرّرت ألاّ أنشرها وأنتظر أن تجوع الأمة وتشتهي أن تقرأ فشبع البطون غطّى كل شئ. نمت لساعات ثم خرجت من غرفتي وجدت أمي وشقيقاتي الثلاثة يتبادلون أطراف الحديث، شاركتهم حوارهم الذي لا يعرف نهاية، شقيقتي الكبرى لمّحت كثيرا إلى وجود رجل في حياتها، لم يفهمها أحد إلايّ، تفاديت لمرّات كسر عظامها وعظامه فقد كنتُ أشكُّ بها وبرجل أكاد أعرفه ومن أوصافي أنّي لا أعترف بالحريّة أمام الشرف ولا بالشاعرية أمام المهانة وإذا اختلطت أضلعي في حرب خضتها لاستعادة شرفي سأكون سعيدا وإذا كُسرت عظامي في حرب خاضها أحد ضدي لاستعادة شرفه سأقبل رغم أني لا أنتهك حرمات الغير وأن الكثير من النساء هنّ من انتهكن حرمتي إلاّ مع هيام فبعد أن بهرني جمالها وجدت نفسي مذهولا فضاعت مبادئي ومات الحديث عن الصون وفضائله.

وصل المساء، إتّصلت بي طالبة إلتحاقي بها فهي وحيدة في البيت تنتظر حضوري.

ركبت سيارة أجرة، منحته العنوان:

شارع عيسات إيدير عمارة رقم 05 الطابق الثاني الباب 01.

إكتفى السائق بالشارع ورقم العمارة وراح يقصُّ عليَّ قصصا عجيبة عن امرأة ترتدي جلبابا صعدت معه من أجل إيصالها إلى مكان قريب ففاجأته بطلبها لعضوه الذكري وصرّحت بأنها لا تريد سواه وأخرى وجهته إلى خارج المدينة وكشفت له عن نهديها وقال كُل كثيرا ولا تشبع والقاسم المشترك بينهما هو الجمال الرهيب والفتنة والشيء المستمر هو رفضه وعدم إنصياعه وراء رغباتهنَّ.

نظرت إليه مليّا فوجدته بشعا لحد بعيد، بأسنانه بقايا الشمة[1] ومن فمه تنبعث روائح مقرفة. رائحة بذلته الرياضية نتنة جدا كسيارته التي ذكّرتني بإحدى الحافلات التي ركبتها وأنا متوجه لمؤتمر حول اللغة فنزلت مغبرا وأسودا. عرفت أن هلوسته كبيرة وأنَّ الحرمان كوّن له شخصية متهالكة، مريضة تحلم بملامسة فتاة. فهذا التأليف ليس وليد الصدفة وكل النساء سيتصحرن أمامه فلا يبقى لهنَّ بلل.

وصلتُ منهكا من حديثه، دفعت له ونزلت هاربا من بشاعته إلى جمالها اقتربت من العمارة، صعدت دروجها متوترا، إتَّصلت بها في أوّل رنّة سمعت بابا ينفتح قليلا، تقدّمت فإذا بالضباب ينقشع والخوف يتلاشى، رأيتها بجلاّبة سوداء مشتعلة بالنور، لم أعرف أنّ السواد ينير إلاّ في هيام، سحبتني من يدي نحوها وأغلقت الباب.

1- من أنواع التبغ.

إتسعت أحداقي وأنا أرى الشموع تحفُّ طاولة عريضة، تَوَسَطتُ الشموع الحمراء وأصناف الحلويات الراقية زُيّنت الكعكة الكبيرة باسمي واسمها، الأحمر غطّى كل شئ، غيّرت ملابسي خفية حتّى لا أفسد هاته العاطفة بالرغبة، فاجأتني أيضا جلاّبتُها التي وجدتها قرب باب الغرفة المقابلة. جلستُ إلى الطاولة العريضة كطفل صغير ينتظر حليب الصباح.

أنتظرُ أن تظهر بعد هذا الإختفاء المفاجئ، حملقت في الأشياء المحيطة بي، لم أر شيئا ذو وصف خاص إلاّ الصور الكلاسيكية واللوحات الفنيّة التي زينت الجدران.

أطلّت كوردة بيضاء عطِرة، منيرة، ارتدت نويزات[1] قصيرة أظهرت أردافها وأكتافها وفاحت منها رائحة زكيّة، وقفت لها وكدت أنحني تقديرا، مدّت يدها اليّ، أمالت رقبتها وابتسمت فظهرت أسنانها البيضاء لامعة، سحبتها من يدها إليَّ، شممت رائحة شعرها العبقة وانتعشت، أبعدت خصلاتها ووضعت يداي على وجنتيّها، قبّلتُ جبينها وسحبته نحو صدري فشعرتُ بالدفئ. مدهشة لحد لا أستطيع وصفه.

هَمَسَت في أذني أحبُّك، أحبُّك.

فقلتُ لعينيها مركِّزا عليها: أموت فيييييييك. أريد الأبد معكِ، لا أرضى بغيّرك، أحبُّك وبغير حبِّك كفِي في الجحيم.

ردّت: ألم تكن هاربا من جهنّم الحب كما سبق وأن قلت في مقال لك.

1- Nuisette.

فقلتُ: إذا كان حبُّكِ جهنّم سأهربُ إليه لا منه.

ردّت: نحبك يا مهبول، نحبّاااااك.

وراحت تقبض على وجنتاي وتسحبني منهما حتّى إحمرّ وجهي كلُّه.

صمتت واتجهت نحو الطاولة، قطّعت الحلوى وقالت لي: ستأكل من فمي فابتسمت، رفعت صوت اليسا فراحت تشدوا بعاطفتها، لم أركز السمع عليها إلاّ سمعتها تقول: ليلة البسلك الأبيض وصير ملكلك والدنيا تشهد.تهتُ طويلا وهاجرت بيَّ أحلام اليقظة إلى أفق بعيد، أوقَفتها ووضعت موسيقى لريتشارد كليدرمان ثم عانقتني مطوّلا وسحبتني نحو غرفة أخرى بها سرير يسع اثنين.جلسنا على حافته، صمتنا قليلا ثم قالت:

– حبيبي هل تقبل أن تضحي لأجلي ولأجل سعادتنا ببعض الأشياء؟

– أضحي بالعمر كله إن تحتّم الأمر.

– عدني أنّك لن تتخلّى عني لو عرفت بعض الأشياء.

– أعدك.

– قل: وعد.

– وعد.

لم تواصل كلامها وغرقت في بكاء طويل، ذكّرتني ببكاء ناريمان ذات حب لكنني أفلحت في الهروب من تلك الذاكرة.

احتضنتها، تعرّقت كثيرا فجأة واستلقت وطلبت مني الإقتراب. مددت يدي نحوها فراحت تمتّص أصابعي، إقتربت أكثر فاستولت عليَّ وتأججّت نارها فاعتلت أصوات الأنين وتوالت الرّعشات وسكن كل شئ.

لحظات وعدنا إلى وضعنا الأول فقالت:

- آآه يا هيام. هيام محب الدين عاشقة؟؟ يالهي ما الذّي فعلته بي يا فتـــاي.

- أحببتك فقط

- هههههه

- أليس لقبُك بوصوف

- بوصوف لقبي أيضا

- كيف ذلك؟؟

إحمـرّت وصمتت، نظرت إلى السقف نظرة مليئة بالخوف والهشاشة فقلتُ:

- ما بك حبيبي؟

ردّت: لا شئ، قلقة من بعض الأشياء، لا أريد أن أفكِّر في شيء عداك، تعال..

إقتربت منها، جعلت رأسي على صدرها، أغمضت عيناي وكدت أنام في لذّة حضنها.

مرّت نصف ساعة وأنا أتمرّغ بين ورود صدرها، ألعق حنان لم أعرفه منذ زمن بعيد، وجدت النور وسط الظلام وأحسست بأنَّ جمال الدنيا قد انحسر في هذا المكان المملتئ بالسعادة، إرتجف صوتي حين حاولت أن أقول لها بأني سعيد ومنتشي، إبتسمت بأنفاسها وضمّتني أكثر فصمتُّ، فجأة شعرت بها تتخلى عن رأسي وتنسحب بهدوء، لم أتحدّث واكتفيت بالنظر إليها وهي ترتدي ملابسها وتتوجه نحو الرواق، مرّت دقائق ولم تعد، قمت فجلست على حافة السرير، سعَلتُ فجاءت مهرولة نحوي تطلبُ مني الصمت.

حينما نظرت إلى عينيها وجدت رهابا كبيرا وخوفا لم أعرف أسبابه، هيام كما لم أرها من قبل، إرتجفت وجلست على ركبتيها، أمسكت يدي، قبّلتها وقالت:

– ثق أنني أحببتك حبا تجاوز التصورات والتقدير، لم أكن لأحبّك بهذا الجنون لولا الرجل الصادق الذي رأيته بداخلك. لم تتكاثر بداخلي لولم تمنحني هذا الأمان والحب، أنت تدرك ذلك وتعيه. وسقطت على يدي دمعة حارّة بينما كنت أحرك رأسي موافقا على كل ماتقول.

– ما الذّي يحدث حبيبي؟

رفعت عينيها وأجهشت بالبكاء، لم أفهم ما الذي يجري، شدّنى الضوء المتوهج بهاتفها الذي لم يتوقف عن الإهتزاز لكني لم أجرؤ على مد يدي إليه حفاظا على خصوصيتها.

– هيام مابك، ما الذّي يجري. هياااام.

- لا تهتم عمري. سينتهي كل شئ.

- نهضت من مكاني بعد أن سمعتُ صوتا قريبا من الرواق، أشعلت نور الكهرباء، الصوت كان خلف الباب، إقتربت منه فإذا به يسقط نحوي مكسورا وممزقا.

ظهر من خلف الباب رجلان، حاول أحدهما خنقي فأفرغت فيه ماحفظته في الحلبات، حينما رأى الآخر تغلبي عليه صعقني بآلة لم أعرفها، سقطتُ وتعرّضت لوابل من الضربات القاسية حيث فقدت القدرة على فتح عيناي.

سمعت هيام تصيح بصوت مرعوب:

أطلقوه، أطلقوه، يا خماج[1] واش تحوس عندي...

ثم شعرت بيدين ناعمتين تمسكان رأسي الذي ينزف وراح صاحب الصوت الغليظ يزمجر:

خائـنة، خائـنة، عاهرة خدّاعة الرجال واش خصك[2] معايا أنا لي تزوجتك ودخلتك للدار.

ردّت عليه بكل قوة:

- لا أحتاجك، لست أنت من يناسبني، قلتها لك ألف مرّة...

ثم سكنت كلّ الأصوات بدوي طلقة نارية أسقطت هيام ناحية الجدار، سمعتها تتراجع ورأيت نورها ينطفأ في خيالي، سمعت

1- قـذر.

2- مالذي ينقصك معي، وأنا من تزوجك وأدخلك الي بيته.

أصوات أبواب كثيرة، سمعت شباب ينادون إرهاب، إرهاب وسمعت من خلف النافذة رجلا يقول: إنّه خالد الشرطي زوج الأستاذة، سمعت صوت رضيع غاضب في الطابق العلوي وسمعت أنين ذاتي وحين فتحتُ عيناي بعد صراع رأيت مسدسا مصوبا نحوي.

عـــــوْدة

أيُّها القارئ العزيز:

هشاشتي كانت سترسم لك طرقا أكثر دهشة ومتعة، ما الفائدة حين نجري وراء قصص هاربة لا تعرف مستقرا، مجرد رغبة في معرفة حياة مختلفة قد نتطابق معها وقد نختلف.

حين تقرر الإستماع إلى ذاتك إقرأ رواية فوحدها الروايات الخالدة تشق لك مسارات قد تكون معقدة لتعرف ذاتك وذات غيّرك المنغمسة في مشاغب اللامنتهى.

لا أخفيك غضبي ووقوعي في مطبات النكد التي أكرهها، حينما إستمعت إلى سرد شاعر تعوّد القوافي لا النثريات، قد سرقك مني والأذن تنخطف لما يحقق الملذات فحين تقرأ بلاشك أنت أحسن مستمع لصوتك الداخلي الذي يربط بين حلقة الفؤاد وحلقات أخرى ينعشها تجلي النصوص والحقائق.

ماحدث بعد كل ذلك الجنون العاري كان مختلفا عن كل السرديات القديمة ووصفه مستعصي وصعب حيث يوجب على السارد بذل جهود مكثّفة، غير متقطعة لايصال القارئ إلى منطقة

في وجدانه تمكّنه من تلمس مشاعر غيره التي تشبه مشاعره مستقرة أو هائجة.

عبد القدوس، ناريمان، مليكة، هيام وغيرهم شكلوا طوال هذا المسار المرتبك فوانيس أضاءت الدروب التي فتحها معبر ورقي نحو عوالم أناس مروا على زمن ما وتركوا آثارا خلّدها التماهي الكبير مع مفردات العبث واللاسلطة.

لو تواصلت الكلمات مع الذاكرة بوسائل أكثر حميمية بعيدا عن الإسترجاع المحض لنافست بروست وزمنه المفقود ولأصبح النص مجلدات لكن هنا نتوقف فلم يعد مجديا الحديث مادام الشعراء قد تحولوا إلى رواة ووجدوا مستمعا.

الجزائر في: 09 جويلية 2014

22:02

صَدَرَ للكَاتِبْ:

-عَاصِفَةٌ العَاطِفَة عَنْ دَارْ جَّيطْلِي لِلنَشْرْ وَالتَوْزِيعْ - 2013-

يَتَنَازَلُ الكَاتِبُ عَنْ حُقُوقِهِ المَادِيَة لِفَائِدَة جَمْعِيَّةْ حِمَايَةْ
المَرْضَى بِالسَرَطَانْ

للتواصل مع المؤلف: taibimohamedrafik@gmail.com